

د. عمّار بلحسن

أنتلجانسيا أم مثقفون في الجزائر؟!!



انتلجانسيا أم مثقفون

في الجزائر؟

دار الحداثة
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
لبنان - بيروت ص. ب ١٤/٥٦٣٦

د.عمار بلحسن

انتلجانسيا أم مثقفون في الجزائر؟



طريق المطار ـ شارع مدرسة القتال
بناية حلمي عويدات ـ تلفون
٨٣٣٩٨٩ ـ ص. ب. ١٤/٥٦٣٦

الطبعة الأولى
١٩٨٦

تمهيد

ربما يكون هذا النقاش ، لحظة من مسار نضج وتبلور المسألة الثقافية في الجزائر ، وهنيهة عميقة من مسعى لتملك واستعادة وعي ، وعي المثقفين بمواقعهم ومواقفهم وسياقات انتاجهم التاريخية ـ المجتمعية .

وربما يكون افتتاحا لنهايات تصور شعبوي ـ تاريخي ، غذى وما يزال يغذي تغييب وتضبيب « القوى المنتجة » الجزائرية اليدوية ـ الذهنية في وحدة شمولية هلامية شاسعة وكلية ، لا تعرف التناقضات أو التفريقات والتحديدات . الحق ، إن طرح مسألة « المثقف الجزائري » في نهاية عشرينية مفعمة بالتحولات السريعة . . يظهر ـ على الاقل بالنسبة لي ـ كحصيلة دالّة .

حصيلة تفكير نقدي ، هو اعادة نظر ومساءلة ، الهدف منها ، ليس فقط تعيين مكانة ودور المثقف في المجتمع ، بل واعادة مَوْضَعته كذات وكمجموعة اجتماعية مستقبلية في سياق ديناميكية التناقضات والعلاقات الاجتماعية المتنوعة وتعبيراتها الثقافية التراثية والحاضرة ، وطنيا وكونيا .

إننا هنا ، أمام محاولات تفكير المثقف حول ذاته وشخصيته وعمله ، أمام خطابات فكرية تتساءل عن « مُنتجيها » وشروط تكونهم ، وظروف انتاجهم ، وتحديدات نشاطهم .

ابتداء من ١٩٨٠ ، طفا « المكبوت » ، واسترجع اولويته في الجزائر : ظهور الثقافة والمثقفين كميدان للصراع و « الجدلية الاجتماعية » .

واحتضان جريدة لنقاش من هذا النوع ـ وربما بهذد الجذرية والتنوع والتنديد النقدي المصحوب بدعوة حميمة لتكوين « انتلجانسيا نقدية » . . فِعلٌ له دلالته . كما أن مشاركة انماط وانواع متعددة من المثقفين (جامعيين وفنانين وصحفيين) يؤشر لحالة نموذجية من التساؤل والتململ الفكري والنقدي المرتبط أساسا بحيوية « المثقفين » كشغيلة ذهنيين .

إن طرح الاسئلة واعادة صياغتها هنا ، وتبعا لفرضية الحوار « انتلجانسيا أم مثقفون ؟ » له دلالته ايضا على صعيد البحث والتفكير والمنهج .

احساسا بكل هذه الدلالات وأهميتها ، اعتبرت نقل هذا النقاش وترجمته لـ « المثقفين الجزائريين المعربين » مهمة وواجبا ، ورأيته ضربة ازميل في جدار « الاحادية اللغوية » كسور يفصل دائرتين ثقافيتين تنتميان بداهة إلى « نفس » البيئة الثقافية . . . من اجل تبادل وحوار مثمر ، يحقق لقاء ـ جدال نوعين من المثقفين ، ونوعين من المراجع الثقافية ـ الفكرية ونوعين من الارتباطات اللغوية ـ الذهنية .

هكذا ـ اذن تشكل هذا الحوار أو النقاش :

نص تمهيدي حول الأيديولوجيا والمثقفين عند غرامشي

حوار ع . جغلول . . كورقة نقاش .

و١٠ تدخلات ـ مقالات كملف نقاش . .

وحصيلة ، هي تركيب نقدي مؤقت لنقاش مفتوح ، يتطلب التعميق .

أما مسار ترجمة هذه النصوص ، وكتابتها باللغة العربية ، فقد نعرض لتعثرات وصعوبات ، على رأسها « المصطلحات والمفاهيم والتراكيب النظرية الدقيقة » التي لا تجد دائما مقابلها الدقيق في اللغة العربية . وتجاوزا لهذه الصعوبة استعملنا عربية حديثة ، أصبح لحسن الحظ الكثير من صياغاتها وتراكيبها أليفاً لدى القارىء « المعرب » ، كما « اجتهدنا » قليلا في نحت وانتاج مفاهيم واشتقاقها ، بمساعدة قواميس ومعاجم مزدوجة .

ورأينا من المفيد ، وضع قائمة للمواد والمصطلحات والمفاهيم النظرية لتسهيل عملية الرجوع إلى الاصل الفرنسي ومعناه .

ولا تفوتني الفرصة هنا ، لتقديم تشكراتي الحارة إلى أصدقاء ساهموا معي في ترجمة هذه النصوص وهم م . طيبي ، وم . داود ، وع. يزلي ، وب . بن عودة ، وبشير .

مشكلة الايديولوجيا والمثقفين عند أ. غرامشي

الماركسية، غرامشي والايديولوجيا

ربما لم تطرح نظرية ومنهجية سسيولوجية موضوع الايديولوجيا على بساط البحث . . كالماركسية ، فعبر كامل لحظات نموها ومراحل امتلاكها لعناصر التحليل ، والجهاز المفاهيمي الخاص بالتفكير والتحليل والتفسير . . . عالجت المنهجية والنظرية المادية التاريخية « الايديولوجيا » بكثير من الانتباه والاهتمام .

فقد كان التساؤ ل عن « الايديولوجيا » وعن مضمونها وشكلها وكيفية « اشتغالها » في تشكيلية اجتماعية معينة احدى « المشكليات » الكبرى للبحث العلمي ، ولربما تبدو الماركسية اكثر المناهج السسيولوجية التي حاولت تجاوز النظريات الايديولوجية للايديولوجية وتقديم عناصر لبناء نظرية علمية قادرة على فهم القوانين الخاصة للمستوى الايديولوجي من البنية الفوقية .

فانطلاقاً من مشكلية « القاعدة/البنية الفوقية » حددت الماركسية بوعي العلاقات المعقدة التي تربط بين البنية التحتية ووحدتها الجدلية : نمط الانتاج والبنية الفوقية ومستوياتها السياسية القانونية والايديولوجية ، يقول ماركس :

« ترتفع فوق اشكال الملكية المختلفة في ظروف الوجود الاجتماعي

بنية فوقية متكاملة من الاحاسيس والأوهام وطرق التفكير والمفاهيم الفلسفية الخاصة : تخلقها طبقة بكاملها ، وتشكلها على قاعدة هذه الظروف المادية والعلاقات الاجتماعية الملائمة لها . . . »[1] .

إن هذه الجمهرة من « الانتاجات الذهنية ـ الفكرية » التي يعبر عنها ماركس : بجملة « **اشكال الوعي الاجتماعي** » في «مقدمته لنقد الاقتصاد السياسي » هي ما يشكل المستوى أو البنية الايديولوجية للمجتمع : فإذا كانت البنيات الفوقية السياسية ـ القانونية لهذا الاخير هي الشكل الذي يتم فيه صراع الطبقات والفئات الاجتماعية فان البنيات الايديولوجية تمثل الشكل الذي يعي فيه الناس والطبقات . . . الصراعات التي تربط بينهم ، اضافة لكونها تَمَثُّلاتهم وصورهم عن التناقضات التي تحرك نشاطاتهم وممارساتهم ، وعلى هذا تبدو هذه البنية كحلقة أو طابق ثالث من بناء معماري هرمي تشكل البنية الاقتصادية المادية قاعدته ، والبنيات السياسية ـ القانونية وسطه أو جذعة ، بالنتيجة وتبعاً لمنطقية التحليل لا تخضع البنية الايديولوجية مباشرة للقاعدة المادية بل تسير و« تشتغل » باستقلالية نسبية ، يقول انجلز في رسالة احد اصدقائه :

« أن الاقتصاد لا يخلق شيئاً من تلقاء ذاته مباشرة ، بيد انه يحدد تطور ونوعية المادة الفكرية الموجودة »[2] .

داخل هذا الحقل التصوري جرت تحليلات ماركس ـ انجلز ولينين للايديولوجية رغم ما صاحب هذه التحليلات من اختلافات وتناقضات[3] وربما لسيطرة النزعة النضالية ـ النقدية على مؤسسي

---

(١) نص لماركس في / « **الاشكالية الماركسية ـ القاعدة والبنية الفوقية** / فبرانز ـ جاكو بوسكي / مجلة « **الحرية** » اللبنانية / العدد **٩٢٥** السنة **٢٠** ـ نيسان / **١٩٧٩** ـ بيروت / ملف العدد ٢ .

(٢) المرجع السابق . . . المشار اليه ص ٤٢ .

(٣) لمزيد من المعلومات حول هذه الاختلافات راجع كتاب/جورج طرابيشي ـ =

المـاركسية في صـراعهم مع « عـطاري الفكـر » وانبيـاء « الايـديـولـوجيـة الالمانية »[1] واتباع هيغل « الهغيليون الشباب اليساريون » ، وربما لارتباط لينين بالتفكير في استراتيجية وسياسية وصراع .

وصراع البروليتاريا الطبقي للقيام بالثورة الاشتراكية ربما لكل هـذا جرت جل لحظات تفكير الرجال الثلاث حول العنصر « الاقتصادي » اي البنيـة التحتيـة الاقتصـاديـة والعنصـر السيـاسي اي البنيـة السيـاسيـة والقانونية[2] . .

فإذا كان مؤسسو المادية ـ التاريخية قد صبوا جل اهتماماتهم العلمية والنظرية على العنصريـن « الاقتصادي والسيـاسي في ديالكتيكهـما » . . . فـإن خير من مثـل استمراريـة هذا التحليـل ليشمل العنصـر السيـاسي ـ الايديولوجي وجدليتهما هو المنظر الايطالي **انطونيو غرامشي**[1] يقول ميشال سيمون :

« لقد قالوا عن غرامشي انـه المفكر المـاركسي الاكثر اصـالة وابـداعاً بعد لينين « . . . نحن نعرف ان ماركس كان مفكر التـاريخ (المـادية التاريخية والاقتصاد (رأس المال ، نقد الاقتصاد السياسي) . ونعرف ايضاً ان لينين هو مفكر الثورة وتقنياتها « الحزب الطليعي وعلاقته مع الأحزاب الاخرى والجماهير » . . فما هي المساهمـة الخاصـة لغرامشي

= الماركسية والايديولوجية دار الطليعة ـ بيروت ط . ١ /سنة ١٩٧١

(١) K.Marx. F.Engels/ L'Idéologie Allemande. E.S. Paris.

(٢) الا يعتبر تبعاً لهذا (رأس المال) . . . مؤلفاً مركـزياً قـائداً لكـل مؤلفات مـاركس الاخرى ؟ كما تعتبر كتابـات انجلز ـ ولينين تكملة لبحث ديـالكتيك الاقتصـادي ـ السياسي بدون أن ننكر في هذا المجال « الايديولوجية الالمانية ككتاب جدل ونقد ـ اساسي للايديولوجية . . . الالمانية !

في التفكير والنقد الماركسي ؟ ان غرامشي هو مفكر السياسة والبنية الفوقية والايديولوجية »[٢] .

الايديولوجيا عند غرامشي

تأثُراً بالحماس الثوري الذي خلقته ثورة اكتوبر الاشتراكية وبالرومانطقية والمغامرة الثورية التي غذّت « مجالس عمال طورينو Turenne » في ايطاليا . . . اكتشف غرامشي فلسفة البراكسيس أي الماركسية كأحسن اداة لفهم وتغيير الوضعية الايطالية . ولكن إذا كانت الماركسية على هذا القدر من الكفاءة والعلمية . . لماذا لا تأتي الجماهير الايطالية للنضال تحت علمها ؟ .

إن طريق الماركسية محفوف بشرطة « الايديولوجية » و« التقاليد » و« طرق التفكير والحياة القديمة » ومحاصر بانساق واجهزة تذيع وتنشر تصورات وافكاراً اخرى للحياة !

لذا . . وحتى لو كانت فلسفة البراكسيس صحيحة . . فانها ليست الوحيدة التي تحوز على اعجاب وانضمام الجماهير . إن مشكلة الايديولوجية مشكلة اساسية تتعلق أساساً بالتنظيم السياسي والطبقي للجماهير .

من هذا المنطلق فكر غرامشي واعاد التفكير في «الايديولوجيا» كمشكلة مرتبطة مع كل التشكيلة الاجتماعية وصراع الطبقات التي تكونها

---

(١) لمزيد من المعلومات حول حياة واعمال انطونيو غرامشي نحيل القارىء الى المراجع التالية . . .

— Maria A.Macciocchi, pour GR amsci, Le seuil Paris, 1974, P.351.

— Michel SIMON, Comprendre les idéologies chronique sociale. Paris 1978, P.100.

الـطبقات وجملة التحـولات والتغيرات التي تعتمـل داخلهـا ، والاشكـال والمضامين التي تكتسبها في كل لحظة تاريخية ـ اجتماعية .

يقـول الدكتـور/فيصل دراج ، أن مفهـوم الايديـولوجيـا كمفهـوم نظري يوجد في حالة علاقـات دائمة مـع الحركـة السياسيـة الشاملة ومـع الممارسة السياسية الواعية لحزب الطبقـة العاملة[1] ففعـالية ودور . . بـل حتى وجود الايديولوجيا واقعياً (كـالكاثـوليكية مثـلاً) أو نظريـاً (المفهوم النظري) نفسه لا يمكن أن يحلل ويحدد إلا داخـل وفي اطار العـلاقة مـع الطبقات الاجتماعية وبنيتها والصراع الـذي يجمع بينهـا . . ودور المثقفين كـ « اسمنت » للكتلة التاريخية التي تكونها تلك الطبقات .

في بحثـه عن عناصـر الايديـولـوجيـا ، يستعـير غـرامشي عنـاصـر التعـريف الذي اعـطاه فيلسوف ايـطالي معاصـر له هـو « بنديتـو كـروس لمفهوم الدين فما يسميه هذا الأخير « دينا » يسميه غرامشي ايديـولوجيـا ، طبعاً بعد رمي جانباً ، الطابع الميثولوجي للدين .

إن الايديولوجيا هي تصور العالم الذي يشمل جانباً نظرياً (بوصفه يقوم بعملية معرفة ويقدم نشاطاً فكرياً) وجانباً تطبيقياً لكونه اطار للنشاط يتجسد كـ « ايمان » و« اعتقاد » وتترجمه عيانياً مواقف وممارسات ونشاطات ملموسة[2] .

فالإيديولوجيا هي فلسفة واخلاقية بالمفهوم التطبيقي لها كمجمـوعة

---

(١) د/فيصـل دراج/ مفهوم الايـديولـوجيات عنـد انطونيـو غرامشي / في : صحيفـة « النداء » بيروت العدد ٦١٧٥ / الأحد ١٦/ ١٩٧٩ صفحـة ـ ثقافـة ـ ص ١٢ ـ ١٣ .

(٢) المرجع السابق . . . ص ١٠٣ ـ

— Comprendre Les Idédogies…

من المعايير والقيم يقول غرامشي : هي . . .

« تصور للعالم يتجلى ضمنياً في الفن ، والقانون والنشاط الاقتصادي . . . وفي جميع تظاهرات الحياة الفردية والجماعية »[1] .

بهذا المعنى تصبح الايديولوجيا المعنى المَعاش والانعكاس الممارس لمختلف العلاقات التي يقيمها الانسان مع سائر الناس ومع الطبيعة : فكل سلوك ونشاط بني البشر يحمل تصوراً للعالم ويتجسد في قيم ومعايير وسلوكات ومواقف بشأن الحياة والمجتمع والوجود . انها العنصر الذي يؤطر وينتج ويفرز كلية الممارسات التاريخية للبشر سواء تجلت في الاشكال الادبية والقانونية أو السياسية والاقتصادية . . . الخ . . .

ونظراً لأن الايديولوجيا تصور للعالم . . فإنها تنزع من حيث هي « تعبيرات » عن طبقة اجتماعية الى الظهور والتجَلّي في جميع مظاهر وانماط سلوك هذه الطبقة ، والتجسد في « **فلسفة** » و« **اخلاقية اعتقادية ايمانية** » « **وحس مشترك** » و« **فلكلور** » . . هي ما يشكل حقل الايديولوجيا ودرجاتها الأربع .

---

(١) نص مشار اليه من طرف/جان مارك بيوتي / **فكر غرامشي السياسي** / ترجمة طرابيشي دار الطليعة ـ بيروت / ط١ ـ ١٩٧٥ / ص ٨٢ .

الدرجات الأربع للايديولوجيا

يحدد غرامشي حقل الايديولوجيا في شكل هرمية منطقية ومنسقة تتألف من أربع درجات أو طوابق ، هي التجسدات « والأشكال الملموسة التي تتجلى فيها الايديولوجيا » .

١ ـ الفلسفة

تمثل الفلسفة « التصور الخاص بالعالم ، الأكثر اتقاناً من ناحية الوضع والتكون الثقافي ، فهي القطب الاكثر صرامة ، والأكثر تنسيقاً ووحدة الذي تتجسد فيه الايديولوجيا، وبوصفها تصوراً طبقياً ، يعود وينتمي لطبقة اجتماعية ، فإنها تهيكل وتحمل داخلها رؤية واضحة منطقية ووعياً منسجماً لمكانة ووظيفة هذه الطبقة داخل المجتمع، ذلك أن التصور الموحد والشامل والمنسجم للعالم يجعل من الطبقة الاجتماعية مجموعة من الناس واعية بدورها التاريخي وبمهامها الاساسية التي تؤديها وتقوم بها في سياق عملية التطور الاجتماعي التاريخي لأي تشكيلية اجتماعية .

إن الفلسفة هي اغنى وأزخم الوقائع الثقافية واكثرها تلائماً وصلابة وانسجاماً ، فالعنصر الاساسي داخلها هو وحدة ومنطقية وانسجامية

عناصرها التفسيرية ومنظوراتها التحليلية لكل مسائل وقضايا ومهام التاريخ والمجتمع يقول غرامشي :

« الفلسفة هي تصور العالم الذي يمثل الحياة الفكرية والاخلاقية « كتسام لحياة واقعية عملية محددة) لطبقة اجتماعية ، منظور اليها لا في مصالحها الراهنة والمباشرة فحسب ، بل أيضاً في مطامحها وصبواتها البعيدة المدى »[1] .

إن العنصر الفلسفي في الايديولوجيا هو تجاوز المباشر والعيني والراهن ، هو اكتشاف وتنسيق للمصالح التاريخية لطبقة اجتماعية معينة من حيث مهام وظيفة السيطرة الطبقية ودور الهيمنة الطبقية التي القاها التاريخ على عاتقها بوصفها طبقة اساسية تحمل اسلوباً للانتاج في احشائها . ونلاحظ هنا تشابهات وعلاقة قرابة بين مفهوم الفلسفة عند غرامشي ومفهوم **الوعي الممكن** عند **جورج لوكاتش** الذي ظهر في كتابه « **التاريخ والوعي الطبقي** » من حيث أن المفهوم الأخير يعين ويحدد الوعي الممكن لطبقة اجتماعية كامكانية فكرية تشمل الافكار والفلسفة والنظرات والتصورات التي يمكن أن تشكل وعيها ، اي العناصر الاكثر تقدماً ومستقبلية التي يمكن أن يفرزها موضوعياً وذاتياً وضعها ومكانتها وعلاقتها داخل نمط انتاج معين. بهذا المنطق تبدو الماركسية اللينينية مثلاً هي « الفلسفة » « والوعي الممكن » للطبقة البروليتارية حتى ولو لم يصل اليها الوعي العمالي في مرحلة تاريخية معينة .

- إن الوعي الممكن أو الفلسفة هي القدر أو المصير الايديولوجي

---

(١) في / جان ـ م بيوتي / فكر غرامشي السياسي . . . المرجع السابق ص ١٨١ .

لطبقة اجتماعية اساسية في نمط انتاج معين وداخل تشكيل اجتماعية محددة .

ويميز انطونيو غرامشي في الفلسفة كلحظة ايديولوجية عليا ، منسجمة واساسية بين الفلسفة التاريخية « والفلسفة » « اللاتاريخية » ، يقول . . .

« إذا كان صحيحاً أن كل فلسفة هي تعبير عن مجتمع معين فإنه يتعين عليها ان تؤثر في هذا المجتمع وتحدد بعض الآثار سلبية كانت ام ايجابية وبحسب قدرتها على التأثير تأخذ اهميتها التاريخية مما يدل على كونها واقعاً تاريخياً وليس لغواً فردياً »[1] .

فتاريخية الفلسفة كتصور منسجم ومنطقي للعالم تتحقق على أساس معيار اساسي هو العلاقة العضوية التي تربطها مع البنية الاجتماعية التي تجعلها صالحة وقادرة على انتاج أشكال معينة من السلوكات والممارسات تؤثر وتفعل في الواقع الاجتماعي ـ التاريخي .

إن الفلسفة المعلقة بين السماء والأرض ، المنفصلة عن ضجيج التاريخ وتحولات المجتمع والصراعات الانسانية هي فلسفة اعتباطية ، هشة مشلولة وبدون فعالية . وحدها الوحدة الفلسفية : البراكسيس كتجسيد للعلاقة العضوية بين الافكار وحركاتها والجماهير وصراعاتها هي التي تحقق الوجود الفاعل والعياني في نسق فكري وتعطيه وحدته وقدرته على فهم وتغيير العالم . . .

هنا لا بد أن نتذكر تأكيدات ماركس على صلابة ومتانة « المعتقدات الشعبية » لأن الكتلة التاريخية بتعبير غرامشي اي « المجموع المعقد للبنية الفوقية المتناقضة وانعكاساته وعلاقاته مع البنية التحتية تجد محتواها في

---

(١) د/فيصل دراج : / مفهوم الايديولوجيا عند انطونيو غرامشي المرجع السابق المشار اليه صفحة ٤٦ .

القوى المادية الموضوعية التي هي الطبقات وتجد شكلها في الايديولوجيات ذلك أن . . .

« القوى المادية لا يمكن فهمها تاريخياً بدون شكل ، والايديولوجيات ستكون نزوات صغيرة ، فردية بدون القوى المادية »[1] .

٢ ـ الدين :

رغم أن غرامشي لم يتكلم دائماً بصيغة التأكيد على أن الدين يشكل طابقاً أو درجة من درجات الايديولوجيا إلا أنه انتبه بيقظة وصحو ووعي لأشكال دينية كالكاثوليكية مثلاً ومدى فعاليتها وهيمنتها على الجماهير الايطالية . . . الأمر الذي دفع به إلى تنضيدها كدرجة ايديولوجية تحت الفلسفة مع ايراد تحفظات موضوعية بشأن ماهية الدين ، فهذا الأخير يظهر في مجموعة من المواقف والسلوكات التطبيقية تتجسد في طقوس وشعائر تديرها وتتحكم فيها الأديان الكبرى . هذه الممارسات تدل على وجود رؤ يا للعالم تترجمها وتجسدها تلك المواقف والسلوكات والمعايير والقيم . وقد قام غرامشي بتحليل شكل ديني هو الكاثوليكية ، كايديولوجيا خاصة تملك نمطيتها ومضامينها ويهيكلها جهاز ايديولوجي هو الكنيسة التي يديرها مثقفون عضويون هم الاكليروس « او رجال الدين» بهدف نشر واذاعة وتحقيق هيمنة الايديولوجية الكاثوليكية وسط وعلى اذهان الجماهير المؤمنة عن طريق اجهزة « الكتلة الايديولوجية » للكاثوليكية . . كالاحزاب السياسية المسيحية ، النقابات والجمعيات ـ ووسائل النشر والطبع والاعلام المسيحية كراديو الفاتيكان . . الخ .

---

(١) Gramsci / dans le texte / E.S. Paris-1977. P. 208

٣ ـ الحس المشترك

هو مفهوم يستعمله غرامشي لتحديد رؤ ية العالم الأكثر ذيوعاً وانتشاراً وسط الطبقات الاجتماعية المسوذة والتابعة . يقول غرامشي ان « الحس المشترك هو فلسفة اللافلاسفة أي تصور العالم تصوراً غير نقدي علمي ، على النحو الذي نجده في مختلف البيئات الاجتماعية والثقافية التي تنمو فيها الفردية الأدبية للانسان الوسط ، والحس المشترك ليس تصورا وحيدا يظل على حال واحدة عبر الزمان والمكان أنه فلكلور الفلسفة ، وله كالفلكلور صور لا تحصى : سمته الاساسية والاكثر تمييزاً له هي أنه على مستوى « كل دماغ » تصور متقطع ، غير متماسك ، هش ولا منطقي يوافق الوضع الثقافي والاجتماعي للجماهير التي يعبر عن فلسفتها[١] .

تبعاً لهذا ما هي خصائص « فلكلورا» الفلسفة ؟وما هي علاقاته بالطبقات ؟

أ ـ إن الحس المشترك هو فلسفة عفوية للجماهير ، منتشرة ومذاعة وسطها .

ب ـ يقوم على استخدام « السببية » بشكل بسيط وسهل ، لا ينحرف عن الصواب في تعليله وتفسيره للظواهر والعلاقات الاجتماعية مع ميل الى التجريب والتحليل بسهولة ويسر .

جـ ـ انه ينطوي على « نواة » من « الحس السليم » القائم على مقدار معلوم من التجربة والملاحظة المباشرة للواقع لكن تلك النواة عالقة

---

(١) نص لغرامشي في كتاب/ جان تكسيه/ غرامشي : دراسة ومختارات / ترجمة ميخائيل ابراهيم / منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ دمشق / سنة ١٩٧٢/ ص ١٤٦ .

في دبق التصورات الدينية ودبق ايديولوجيات الطبقة السائدة ودبق العناصر الايديولوجية المتأتية من الماضي .

د ـ إن طابعه معقد ومركب ، كالدين ، ولكنه لا يملك وحدة وانسجامية التصور الديني للعالم .

هذه الخصائص تجعل التفكير الفلسفي لدى الجماهير ذات طابع « ايماني ومعتقدي » فالموقف الفكري عند انسان من الشعب يتكون عادة من المظنونات والمعتقدات ومن موازين التمييز والتحليل وقواعد السلوك التي يراها مذاعة ومشتتة في اوساط الطبقة أو الفئة الاجتماعية التي ينتمي اليها ، وحتى لو لم يجد الحجج العقلانية الصارمة للاقتناع والزواج بنظرة طبقته للواقع والعلاقات الاجتماعية فان يعرف بالحس والحدس أن هناك مثقفين ومتعلمين قادرين على افحام الخصم الطبقي وتقزيمه وتخريب محاججته الفكرية ، وبالتالي تحقيق هزيمته. ان الفكرة الطريفة لماركس التي تقول ان « تفكير المرء في الكوخ يختلف عنه في القصر» صحيحة في هذا السياق إذا أخذت بعيداً عن كل جبرية أو حتمية ميكانيكية تربط العلاقات الانتاجية المادية التي تؤطر المرء والاشكال التي يتخذها وعيه وعاء لتجربته واحساساته ونظراته وافكاره بشأن وضعه المادي والاجتماعي .

٤ ـ الفلكلور :

هو آخر طابق أو درجة للايديولوجيا ، يعدُّه غرامشي حساً مشتركاً متيبساً ومتجمداً ، مترسباً ومتنافر العناصر ، وفقيد الثراء من حيث محتوياته ومضامينه يقول :

« الفلكلور هو مجموع مشوش ومختلط من الشذرات التي تنتمي لكل

تصورات العالم والحياة المتتابعة في التاريخ . . والوثائق المصورة والمبتورة المدهشة والملوثة »[1] .

فتلك الشذرات والشظايا الذهنية التي ما زالت تنشط طبقات خاضعة تحتل اسفل الحياة الاجتماعية هي التي يعنيها غرامشي بالتحديد مستبعداً بذلك « المعنى الرديء » الذي يفهم من الفلكلور . أن هذا الاخير يعني هنا طريقة الحياة والفعل المكونة من مجموع الشظايا والشذرات المبتورة ، والمشلولة وغير القادرة على الوصول الى تشكيل تصور عام شمولي وموحد للحياة والعالم ـ انه تلك البقايا الفكرية والذهنية التي تسقط من موائد الايديولوجيات « النبيلة » : كالفلسفات ، العلوم ، الاديان . وتغذي تلك الطبقات والفئات الاجتماعية التي كانت دائماً ضحية التاريخ . . . . إن الفلكلور هو الدرجة صفر من الايديولوجيا !

تلك هي الهرمية التي يبينها غرامشي للايديولوجيا ومحتوياتها التي تبرز الفلسفة والحس المشترك ضمنها، بوصف الأولى وحدة تصورية منسجمة ، تتطور وتنزع دائماً في اتجاه منسجم وموحد ، تعبر عن مطامح وصبوات طبقة اجتماعية على المستوى التاريخي ، تتجاوز الراهنية والمصالح الآنية التي يمكن ان تتعارض على المدى القريب مع المصالح التاريخية لنفس الطبقة وبوصف الثاني نواة من الحس السليم تحمي الطبقة من التأثيرات الايديولوجية التي تحملها الطبقة السائدة ، وتعطي لها امكانية تكوين وعي ذاتي مستقل سيكون عمل ووظيفة المثقفين المرتبطين بها عضوياً .

إذا كان هذا هو حقل الايديولوجيا ودرجاتها فما هو دورها وفعاليتها داخل البنية الاجتماعية ؟

---

(١) نص مشار اليه من طرف المرجع السابق المشار اليه. ص ١٠٥ .

دور وفعالية الايديولوجيا

بادىء ذي بدء ، لا بد من الانطلاق من اسس تحليل غرامشي للايديولوجيا داخل البنية الاجتماعية لمعرفة دورها ووظيفتها .

إن غرامشي يربط بحميمية تحليله للايديولوجيا بالصراع الطبقي وبالممارسات السياسية العامة للطبقات الاجتماعية ، نظراً لأن الصراع السياسي والايديولوجي والذي يدفع بالفلسفة إلى حقل الممارسة، حيث تتحول وتتبدل وتتصلب وتكتسب سماتها ومحتوياتها ، فعمليات انحلالها وتشكلاتها ، وتحولاتها وسيروراتها لا يمكن أن تفهم وتعقل بشكل صحيح إلا داخل السياق العام للصراع الطبقي كمحرك أساسي عام للحركة التاريخية في كل مجتمع .

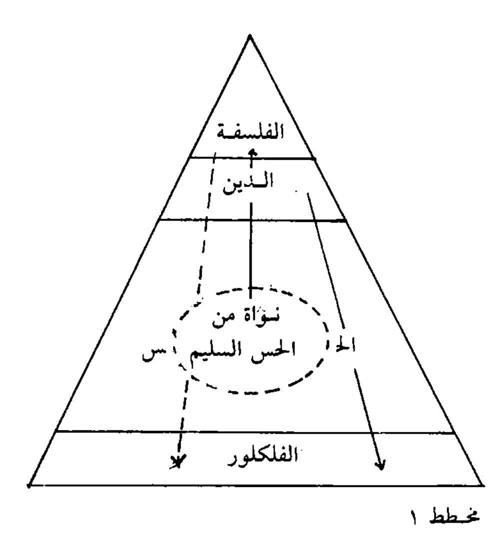
يقول غرامشي :

« فقط عندما تصبح مجموعة اجتماعية متجانسة اجتماعياً على مستوى الايديولوجيا ، يمكن القول ان كل الشروط الموضوعية متوفرة لتغيير وتحويل البراكسيس : الممارسة/النظرية »[1] .

---

(١) المرجع السابق . . . ص ١٩٣/١٩٤ Gramsci dans le texte .

(٢) انظر مخطط هذه الهرمية .



مخطط ١

درجات الايديولوجيا عند غرامشي

فالبراكسيس كوحدة للنظرية/الممارسة يصبح قابلاً للتغيير عندما تصبح ايديولوجيا محددة وتطبقية تبعاً لتعبير ـ التوسير ـ شكلاً للقوى المادية، فهي تعطيها التجانس والوحدة ، وتكفل لها الحصول على الوعي الذاتي المستقل والتصور المنسجم للعالم الذي يعين لها مهامها ومكانتها ودورها تاريخياً ، ويعطيها صوراً عن موقعها داخل شبكة العلاقات الاجتماعية ، وعن موقع اعدائها الطبقيين ومشروعاتها التاريخية الخاصة بشكل المجتمع الذي تريده .

إن الايديولوجيا تشبه لحظة « التطهر »(كاثرسيس) بالنسبة للطبقة . فانتقال وعيها من المستوى الاقتصادي الحرفي إلى مستوى الوعي السياسي الايديولوجي يضيء لها الطريق لمعرفة نفسها وذاتها ووعي شرطها الوجودي والحياتي ، واستقلاليتها، أي تلك اللحظات التي تتشكل خلالها العناصر المكونة للوعي الطبقي وتتخذ شكلاً موحداً منسجماً صارماً يعبر عن

« مبررات » الوجود والوظيفة والدور التاريخي للطبقة داخل المجتمع ، بهذا تصبح الايديولوجيا « اسمنتا » ضرورياً لتشكل الطبقة ووعيها لذاتها فهي « تنظم الجماهير الانسانية » وتشكل الميدان الذي تتحرك فيه هذه الجماهير وتعي داخله وفيه شخصيتها ومهامها ومواقفها واهداف صراعها ونضالها . إن فعالية الايديولوجيا تبدو هنا بسيكولوجية وضرورة تاريخية .

بهذا المنطق يميز غرامشي بين المعنى السلبي الذي يعبر عنه نقد ماركس للايديولوجيا في شكلها الالماني؛ جملة ثورية ، سلبية ، وهمية وعينية وضبابية تتفجر على السنة انبياء وعطاري الفكر الالماني .

(فيورباخ ، برونوباور ، وستسونر) ولا تستطيع تغيير وتحويل شعرة من البنية الاجتماعية . . . وبين المعنى السسيولوجي لها كبنية ضرورية وموضوعية داخل البنية الاجتماعية . هذا التمييز يتجلى في ما سماه غرامشي الايديولوجيا العضوية والايديولوجيا المبتذلة ، يقول :

« يجب اذن التمييز بين الايديولوجيات العضوية تاريخياً ، الضرورية لبنية معينة والايديولوجيات المبتذلة ، العقلانية ، « المرادة » . فضرورة الأولى تاريخياً تعني أن لها مفعول وشرعية وفعالية بسيكولوجية ، انها « تنظم » الجماهير الانسانية وتكون الميدان الذي يتحرك فيه الناس ، ويكتسبون داخله الوعي بمواقفهم ، ويناضلون . . . الخ . .

اما ابتذالية « الثانية فتظهر في انها لا تخلق شيئاً غير « الحركات » الفردية والمجادلات . . . الخ . . . »[1] .

وبتأكيده على الفعالية البسيكولوجية للايديولوجيا لا يختصر غرامشي

---

(١) المرجع السابق / ص ٢٠٨/٢٠٧ . Gramsci dans le texte .

دورها الى أن التأثير النفسي والذاتي في الناس ، بل يرى دورها موضوعياً واساسياً في كونها اداة « تنظيمية » « ادارية » لهم ولممارساتهم المتنوعة والمختلفة .

ألم تشكل الايديولوجيا الدينية مثلاً اشكالاً لعلاقات الناس الاجتماعية ، وأدوات « تنظيم » روابطهم المختلفة وفق قيم ومعايير تجسدها سلوكات ورؤى معينة بشأن المجتمع والوجود .. الخ ..؟

إن « صلابة » « وقوة المعتقدات الشعبية » تبدو هنا (استلهاماً من تأكيدات ماركس في افكار غرامشي حول الايديولوجيا وفعاليتها وصلابتها) . . . الخ ألم يقل ماركس أن الأفكار عندما تتملكها الجماهير تصبح قوة مادية ؟

بهذا يتجاوز غرامشي المعاني التحقيرية للفظ الايديولوجيا ويعطيها المعنى السسيولوجية البعيد عن كونها «غيوم فكرية عبثية» تصبح ضرورية وفاعلة وتاريخية . . داخل البنية الاجتماعية . إن خطورتها تظهر في أنها « تنظم وتشكل » « القوى المادية الطبقية » .

وتقترب هذه الفكرة من تمييز انجلز بين الشكل والمضمون في وحدة « القوى المادية والايديولوجيا»، مع ان غرامشي لا يقبل فصل الواقع عن الأفكار، والنظرية عن الممارسة، إلا لأسباب تربوية وتحليلية، ذلك أنه يستعير من علم الفسيولوجيا والبناء صورة لتجسيد فكرته عن الوحدة الضرورية بين الشكل والمضمون الخاص بعلاقة القوى المادية / الايديولوجيا . يقول :

« . . . لأن المشكل الاساسي يطرح لكل تصور للعالم ، لكل فلسفة اصبحت حركة ثقافية و« دينا » و« ايمانا » أو معتقدات أي لكل فلسفة تنتج نشاطاً تطبيقياً وإرادة يحتوي كلا منها على بذور نظرية ضمنية

(يمكننا القول ايديولوجيا إذا اعطينا اللفظة المعنى الأكثر تقدماً والذي يعني ذلك التصور للعالم الذي يتجلى ويتظاهر ضمنياً في الفن ، والقانون والنشاط الاقتصادي ، وفي كل تظاهرات الحياة الفردية والجماعية) بتعبير آخر ان المشكل المطروح هو الحفاظ على الوحدة الايديولوجية داخل كل الكتلة الاجتماعية التي تصبح حقيقة - بواسطة الايديولوجيا مسمَنتة وموحدة [١] » .

هذه الصورة التي يستعيرها غرامشي من عمل البنائين الايطاليين تدل على الدور « التلحيمي » و« **الاستقطابي** » و« **التمليطي** »[٢] تقوم به الايديولوجيا ، وهذا عن طريق تشكيل الطبقة الاجتماعية وبنائها بناء مسلحاً ، فليس هناك مجتمعات وطبقات وفئات تحيا بدون وحدة عضوية تربط بين مختلف اعضائها ليكونوا كالبناء المرصوص ، يشد بعضه بعضا » .

ويستلهم غرامشي باعجاب وغيرة مثال الكنيسة الكاثوليكية وايديولوجيتها في ايطاليا ليجسد الدور التلحيمي والتسليحي الذي تقوم به الايديولوجيا داخل الطبقة والجماهير المؤمنة ، فقد استطاعت هذه المؤسسة الدينية أن تحافظ على وحدة الكتلة الايديولوجية الكاثوليكية وتمنع انحلالها وتفجرها عن طريق التنظيم الدائم والتوليف الفكري المستمر والمنسجم لعلاقة الطليعة الدينية بالجماهير المؤمنة . . في وسط العواصف والاختراعات التكنولوجية والتحولات الايديولوجية المتنوعة . إذا كان هذا هو دور الايديولوجيا داخل البنية الاجتماعية فعن طريق وفي أية وسائل ومؤسسات يتم انتاجها وتوزيعها واذاعتها ونشرها لتصبح المرشد الذي ينظم ويدير ممارسات الناس ؟

---

(١) من كلمة اسمنت « ciment مُسَمَنَة = cimenté أي حالة من بنوه بالاسمنت أو مُمَلَّطة ، من ملاط (أي خليط الرمل والماء والاسمنت) ، ملَّط ، يملط ، تلميطاً .

(٢) المرجع السابق ص : ٨٣١ **Gramsci dans Le Texte**

مؤسسات انتاج ونشر الايديولوجيا

الجواب على هذا السؤال بالنسبة لغرامشي سيكون دائماً من الواقع الايطالي فهذا الاخير قدم لمنظرنا ملاحظات ، سينسقها نظرياً فيما يسميه المؤسسات التي تصل الايديولوجيا بالجماهير وتذيع مضامينها واشكالها في المدن والأرياف . . . والاذهان .

فعن طريق دراسته للكنيسة الكاثوليكية سيكتشف العمل الايديولوجي لمؤسسة تتجلى منتوجاتها الفكرية في اشكال ووسائل كالمدرسة والأحزاب والنقابات والكتب والاذاعات . . . المسيحية !

ويحكي غرامشي بحب وغيرة عن لحظات مروره أمام المكتبات ووقوفه أمام واجهاتها للاستمتاع برؤية عناوين الكتب . . . الدينية التي يربو عدد طبعاتها عن المئة . . . ويتعجب لهذه القدرة الهائلة على الانتشار التي تتمتع بها الايديولوجية الكاثوليكية . . ترى ما السر ؟

بنسق غرامشي تساؤلاته ـ اجوبته في مفهومين قديمين ـ جديدين هما **المجتمع المدني ـ المجتمع السياسي** ، قديمين لكونها وجدا في كتابات هيغل وماركس ـ انجلز ، وجديدين لأنهما يتشكلان من عناصر تعريفية جديدة .

فالمجتمع المدني هو تلك البنية التي تسمح بانتاج واعادة انتاج

وتوزيع واذاعة الايديولوجيا الخاصة بالطبقة المسيطرة ، هذه البنية تتكون او تحتوي على انساق التفكير والمؤسسات والمنظمات والوسائل المادية الخاصة بخلق ونشر وتوزيع « المنتوجات » الايديولوجية بتعبير آخر . . المجتمع المدني هو ذلك المجمَّع الفكري ـ الاجتماعي المادي الذي تتجسد فيه الايديولوجيا مع وصلاتها التنظيمية ووسائل اذاعتها الهادفة إلى تحديد السلوكات والممارسات الاجتماعية من أجل تحقيق « اجماع » الجماهير وقبولها بالهيمنة الطبقية للطبقة المسيطرة .

ويتشكل المجتمع المدني والمنظمات والاجهزة المسماة عادة بالمؤسسات « الداخلية والخاصة » التي تنتج وتوزع الايديولوجيا المسيطرة لتحقيق وظيفة « الهيمنة » على الطبقات الاخرى وايديولوجياتها ، هذه المنظمات يحصيها غرامشي كالتالي : المنظمات والمؤسسات الدينية (الكنيسة مثلاً) المنظمات المدرسية (المدرسة والجامعة . . الخ) .

المنظمات الاعلامية (الصحف والاذاعة والتلفزيون . . الخ) المنظمات العلمية (الجامعات ومراكز البحوث . . الخ) تنظيمات الطبع والنشر (المطابع ، الكتب المكتبات) . . الخ . .

أما المجتمع السياسي فيتجسد في الدولة واجهزة الاكراه والقمع والضبط القسري المباشر والمنظم الذي يحقق وظيفة « **السيطرة** » الخاصة بالطبقة المسيطرة[1] .

إذن فالمجتمع المدني ومؤسساته وتنظيماته هو منتج وموزع وناشر

---

(١) بخصوص « السيطرة » و« الهيمنة » « الطبقية » . . . راجع كتاب / مهدي عامل / **مقدمات نظرية لدراسة اثر الفكر الاشتراكي في حركة التحرر الوطني القسم (١)** « في التناقض / دار الفارابي بيروت ـ ١٩٧٣ والقسم ٢ « **نمط الانتاج الكولونيالي** ، بيروت ١٩٧٦ ـ دار الفارابي ـ بيروت .

الايديولوجيا . . طبعاً الايديولوجيا المسيطرة الخاصة بالطبقة المسيطرة بهدف تحقيق وظيفة الهيمنة والحصول على قبول الطبقات المسودة بسيادة الطبقة المسيطرة . . . وتصليب « انسجامية » « واستقلالية » . وعيها الطبقي داخل الحركة التاريخية العامة لصراعاتها مع الآخرين .

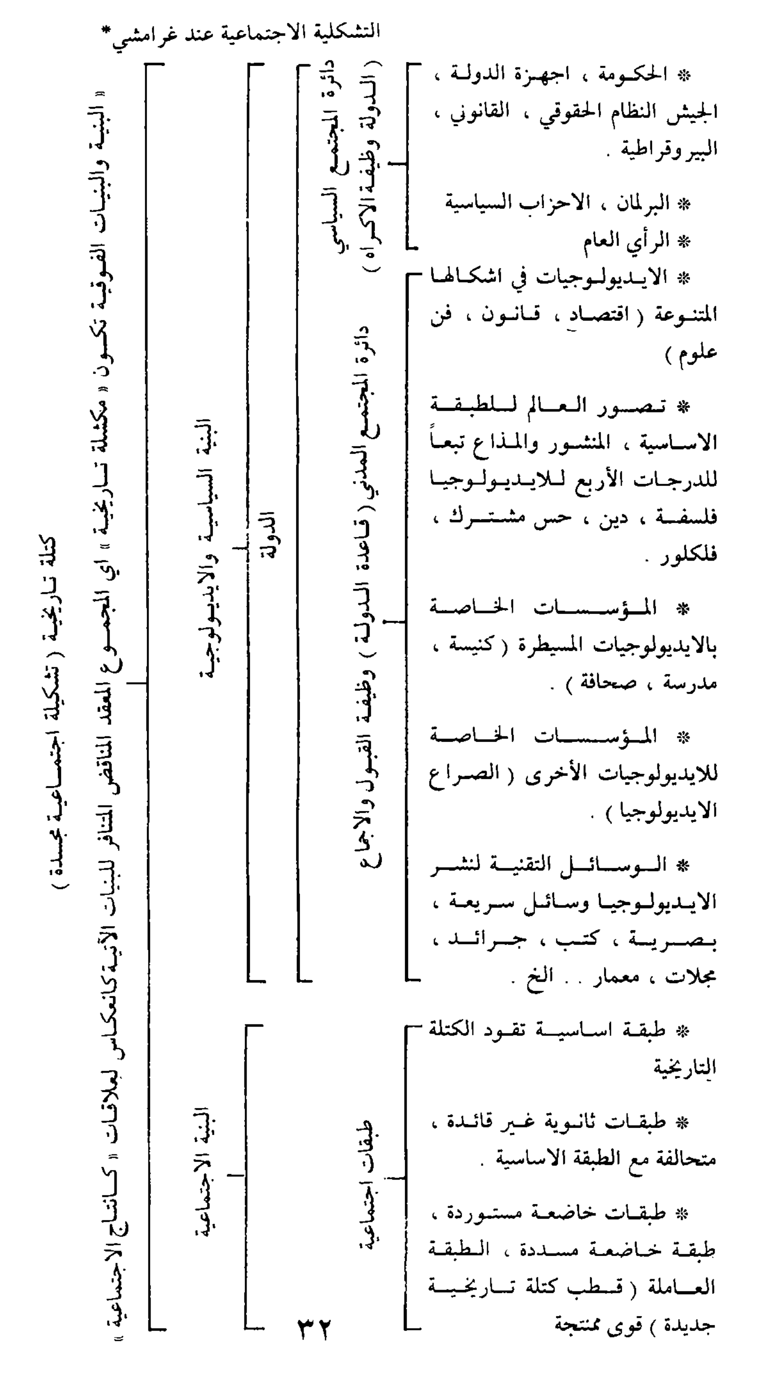
إن هذه الاجهزة تشبه قليلاً « اجهزة الحقن الطبية » فهي تحقن الطبقة المسيطرة بالمصل الذي يكفل التصدي لهجومات « ميكروبات » الأيديولوجيات المضادة ، ويسمح بافراز الوعي الذاتي المستقل« داخل الجسم الاجتماعي الذي يحتضنها ويكونها . عن طريق اقتناء هذه الطبقة التدريجي للوعي الطبقي تتحدد شخصيتها التاريخية الخاصة وتدفع الى اذاعة خصائصها ومبادئها وتصوراتها وسط الطبقات الاخرى المسودة من اجل « اخضاعها » ايديولوجياً وربحها والحصول على ثقتها وقبولها والوصول بالتالي إلى حالة الاجماع على شرعية سيادتها وحكمها في المجتمع .

فكيف السبيل لتكوين الوعي الذاتي الطبقي لطبقة اجتماعية وكيف يتحقق الوصول إلى بناء التحصين المسلح المضاد للوعي والفكر المناقض لها ولمصالحها ومهامها التاريخية ؟

جواباً على هذا التساؤ ل الملخص لجملة اسئلة . . طرح غرامشي مشكلية جديدة واصيلة لم تكن إلا على شكل عناصر متفرقة غير منسقة في الفكر السسيولوجي عموماً والماركسي خصوصاً .

هذه المشكلية هي « المثقفون » .

التشكلية الاجتماعية عند غرامشي*



مشكلة المثقفين

يقول غرامشي :

« الوعي الذاتي النقدي ، يعني تاريخياً وسياسياً خلق نخبة من المثقفين ، فالكتلة البشرية لا تتميز ولا تصير مستقلة من تلقاء ذاتها ، من دون أن تنظم نفسها بالمعنى الواسع ، ولا تنظيم بدون مثقفين وبدون منظمين وبدون قادة »[1] .

بهذا النص ، يضع غرامشي في الضوء العلمي ، علاقة موضوعية سسيولوجية هي علاقة الطبقات بالمثقفين ، أي ديالكتيك عملية تكوين الوعي الطبقي ككل بوصفها عملية تحتضن علاقة عضوية بين منتجي الافكار والتصورات والانساق النظرية والطبقات الاجتماعية واوضاعها العيانية الملموسة وما تفرزه من اشكال وعي حرفي اقتصادي .

فغرامشي يقوم في اعادة تحليله لمفهوم « المثقف » بتدمير التصورات الميتافيزيقية عنه وهذا بتجاوز افكار « كاستقلالية » و« انعزال المثقف » عن الطبقات وصراعاتها ، ليكون بذلك وبأصالة

(١) نص لغرامشي في ٤ ج مع بيوتي فكر غرامشي السياسي . مرجع سبق ذكره . ص ١٩٩ .

وابداع لم يسبقه احد اليه ـ عناصر علمية لنظرية سسيولوجية حول المثقفين .

وبالفعل فإن افكار غرامشي حول المثقفين تعتبر ربما المساهمة الوحيدة التي يعترف بها الجميع ، من اليمين إلى اليسار وبدون استثناء . . إن القدرة والكفاءة التحليلية التي وظفها المنظر الايطالي في تحليل ميدان المثقفين وهو في السجون الفاشية لموسليني ، والصفاء الذهني والنصاعة الفكرية التي نسق بها افكاره . . . تجعله المفكر السسيولوجي بامتياز، للبنية السياسية والايديولوجية .

وقد ارتبطت اعادة التفكير هذه عند غرامشي بجملة القضايا النظرية والتطبيقية التي طرحها صراع الطبقات سياسياً وايديولوجياً ، ذلك أن دراسة غرامشي للايديولوجيا لا تنفصل منهجياً عن مشكلة المثقفين ففهمها وتحليلها يستلزم فضلاً عن تحليل بنية الطبقات الاجتماعية معرفة بتوزيع المثقفين بشتى اصنافهم ، ومعرفة بتكوينهم وروابطهم العضوية المتباينة مع الطبقات الاجتماعية الخ[1] .

إن اللحظات التي تمر بها الطبقات والفئات الاجتماعية في رحلة اكتسابها الوعي السياسي ـ الايديولوجي الخاص بشخصيتها التاريخية ، متطهرة بذلك من عناصر الوعي الجرفي الاقتصادي ومركبة أوضاعها العيانية الراهنة والملموسة في نسق نظري يشمل الدرجات الأربع للايديولوجيا : الفلسفة، الدين ، الحس المشترك والفلكلور . . . تلك اللحظات تتجوهر[2] مع ممارسة المثقفين لاشكال التبليغ الفكري والتوصيل الايديولوجي ، الم يقل أن لا وعي

---

(١) جان ـ مارك بيوتي **فكر غرامشي السياسي** : المرجع السابق ص ١٩٦ .
(٢) تتجوهر اي تتشابه جوهرياً ، لها نفس الجوهر والاساس .

نقـدي وطبقي . . . بدون مثقفـين . . . ثم أن تجارب صـراع الـطبقـات والأمم تقول ان غياب « المنظمين ـ القادة ـ المثقفين ـ » كـطليعة كـان دائماً عامل فشل وتقهقر الثورات الاجتماعية والوطنية ؟ بعض الامثلة : كومونة بـاريس سنة ١٨٧١ في فـرنسـا ، حيث قـام العمـال الفـرنسيـون بمبـادرة « الصعـود » الى السماء « بتعبـير ماركس نفسه ، في ظرفيـة نيئـة اقتصـاديـاً وسياسياً وايديولـوجياً ذلـك ان عدم بلوغ « الـوعي البروليتـاري » مرحلة النضج والوحدة والصرامة افرز «تنوعات واختلافات » الايديولـوجيا التي حـركت وادارت هذه الانتفـاضة ، تجسـدت في البنيـة المتنـاقضـة للقيـادة الايـديولـوجية : تنـازع القيادة بـين التيارات الفـوضويـة والبـورجـوازيـة الصغيرة والبروليتارية العـائدة اصـلاً لفلسفة « بـاكونـين » واليعاقبـة و. . مـاركس ـ انجلز . أن كومـونة بـاريس فشلت لأنها انتفاضـة جاءت قبـل وقتها نظراً لعدم تبلور ونضوج الـوعي البروليتـاري وتبنينه كـايديـولوجيـة واضحـة وموحـدة . . . كانعكـاس لعدم نضـوج التنـاقضـات في احشـاء التشكيليـة الاجتمـاعيـة الـرأسمـاليـة الفــرنسيـة وتبلور التبنين الـطبقي للمجتمع .

ذلك هو مركز خطورة تحليل غرامشي للعلاقة الجدليـة/الطبقـات ـ المثقفـين / . كعلاقـة ضروريـة ، موضوعـية وسسيـولوجيـة تعني علميـاً « ارتباط » المثقفين عضوياً بالطبقات وصراعاتها .

المثقف العضوي

في محاولته « تكون المثقفين » يبلور غرامشي جوابه بدقة على السؤال المركزي التالي : هل يشكل المثقفون فئة اجتماعية مستقلة أم أن كل مجموعة أو طبقة اجتماعية تلد وتفرز وتنتج . . . مثقفيها ؟

يقول غرامشي :

« إن كل فئة اجتماعية ، ترى النور في بادىء الأمر على ارضية وظيفة اساسية في عالم الانتاج الاقتصادي ، تخلق عضوياً في نفس الوقت الذي ترى النور فيه شريحة أو عدة شرائح من المثقفين الذين يزودونها بتجانسها وبوعي وظيفتها الخاصة لا في المضمار الاقتصادي فحسب وإنما ايضاً في المضمار السياسي والاجتماعي[١]

قراءة هذا النص الأساسي تدلنا على أن العناصر المكونة لمفهوم المثقف تتحدد في منظور غرامشي في حقيقتين ، الحقيقة الأولى هي أن المثقف لا يعرّف على اساس التفرقة بين العمل اليدوي والعمل الذهني . . . بل على اساس المكانة والوظيفة الذي يقوم به هذا المثقف داخل البنية الاجتماعية ونظام علاقاتها الاجتماعية .

---

(١) المرجع السابق ص ٥٩٧/٥٩٨ . Gramsci dans le texte .

بهذا الطرح يوسع غرامشي مفهوم المثقف ليشمل كل من يمارس عملاً تربوياً ثقافياً اخلاقياً . . . فمناضل الحزب، والمعلم ، والصحفي ، والأديب مثقفون لكونهم يبذلون عملاً ذهنياً . . يتعَدَّى كثيراً كمية ونوعية العمل اليدوي الذي يؤدية الشغيلة اليدويين مثلاً .

إن المفهوم الذي اعطاه غرامشي للمثقف يتعدى ويتجاوز المضمون الضيق الذي اعطاه ماركس والذي يقتصر على مبدعي و« مفبركي » الأوهام وصناع الأفكار والايديولوجيات فقط !

أما الحقيقة الثانية فهي أن كل طبقة اجتماعية تلد تحت تأثير نمو القوى المنتجة وانفجار نمط انتاجي ، وولادة نمط آخر ، شرائح من المثقفين ، لا يقومون بوظيفة تمثيلها . . . بل يرتبطون بها عضوياً فقادة الطبقة الأساسيون لا يمارسون النشاطات الفكرية المتنوعة . . . بل يسلمون هذه المهام وتلك النشاطات إلى وكلائهم : المثقفون العضويون هؤلاء الذين يعتبرون « منظمي » الوظيفة الاقتصادية للطبقة ، فهم حملة ورسل ومديري وظيفة الهيمنة التي تمارسها الطبقة السائدة في المجتمع المدني الايديولوجي والمؤسسات التابعة له . من اجل تحقيق قبول واجماع الطبقات المسودة الخاضعة[1] . . كما أنهم ينظمون السيطرة والاكراه ايضاً في المجتمع السياسي (الدولة واجهزتها). تبعاً لهاتين الحقيقتين ـ تتجلى وظيفة المثقفين العضويين كما تقول ماريا انطونييتا ماكيوكشي :

« المثقف العضوي هو المثقف الذي تكون علاقته مع الطبقة الثورية

(١) المرجع السابق/ ص ٢١٧ ، ٢١٦ .

ينبوع تفكير مشترك ، فليس هو ذلك النرجسي ، الفرداني المحلق على « اجنحة الفكر الحر » . . . والذي يقيم علاقة مضببة (او سرية) مع الطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها .

إن العلاقة العضوية هي قبل كل شيء وعكس ما سبق ، علاقة معترف بها ، معلنة ، منظرة ، ومرادة سياسياً من أجل الدفاع بطريقة جيدة عن « التصور الجديد للعالم » الذي تحمله تلك الطبقة الثورية الصاعدة »[1] .

وبالفعل فالوظيفة الأساسية لكل مثقف عضوي داخل البنية الاجتماعي هي كونه « آسمنتا » يربط البنية التحتية بالبنية الفوقية ويكون بذلك (الكتلة التاريخية) فهو . . هو وزملاؤه طبعاً ـ يقوم بخلق وتوزيع ونشر الايديولوجيا من جهة ، وضمان انسجامية وعي الطبقة التي يرتبط بها عضوياً من جهة أخرى .

وتحقيق تجانس تصور العالم الخاص بتلك الطبقة عملية تتم على مستويين ، المستوى الأول هو تنظير الممارسة السياسية للطبقة الاجتماعية وانتاج معرفة بدورها ووظيفتها اي القيام بعمل ثقافي يهدف لتأسيس تصور العالم المتضمن في الممارسات السياسية ، ويتطلب هذا الانطلاق من الحس السليم ، النواة العقلانية في الحس المشترك للطبقة ، وتكوين فلسفة ورؤ ية للعالم ،وانطلاق اعضاء الطبقة لوعي وحدة مصالحهم ومصائرهم ، واستقلالية حركاتهم ووحدة مهامهم التاريخية التي يفرزها وضعهم داخل علاقات الانتاج، وكشف امكانية قدرتهم على تكوين طبقة اجتماعية لها شخصيتها التاريخية .

---

(١) م . ا . ماكيوكشي . من اجل غرامشي ص ٢١٣ وما بعدها .

يقول غرامشي :

« يجب الانطلاق من الحس المشترك ، الفلسفة العفوية للجماهير التي تتطلب وتفرض تحقيق انسجاميتها ايديولوجياً »[1]

إن غربلة الحس المشترك لاخراج نواة الحس السليم من دمن ومزابل التأثيرات الايديولوجية للطبقات السائدة وفضلاتها المتبقية هي هذا العمل الذي يسميه غرامشي وهو يتكلم عن المثقفين العضويين للبروليتاريا . بـ«الاصلاح الثقافي» وعزل العناصر المضادة والمتبقية من التجارب الماضية للصراعات الايديولوجية والناتجة عن التأثيرات التي تمارسها الطبقات الاجتماعية الأخرى .

أما المستوى الثاني فهو نشر وتعميم وإذاعة تصور العالم وسط الطبقات الاجتماعية الأخرى ، العمل الذي يتطلب بلورة نقد اساسي من طرف المثقفين العضويين للايديولوجيات الاخرى التي تشوه الوعي الطبقي الذاتي المستقل للطبقة الاجتماعية التي يرتبطون بها عضوياً .

بهذا الطرح يضرب غرامشي الاطروحات التالية القائلة بـ « استقلالية » المثقفين عن الطبقات الاجتماعية ورؤيتهم كطبقة أو كشريحة اجتماعية منفصلة وحيادية في الصراع الطبقي والتقدم التاريخي للمجتمعات . فالمثقفون لا يوجدون هكذا ، معلقين في الفراغ ، ومعتكفين في الابراج العاجية يتفرجون من وراء قلاعهم الفكرية على معارك وصراعات المجتمع بعيداً عن شظايا الحروب الاجتماعية ، وديالكتيك التناقضات وتصورات الناس، وغليان الايديولوجيات ؟

---

(١) نص غرامشي في ـ المرجع السابق ص ٣١٧.

ولا يعني هذا عدم وجود استقلالية نسبية في علاقاتهم مع الطبقات ، فهم يرتبطون بها من خلال التنظيمات التي يعملون بها ، هذه التنظيمات التي تتجسد في المجتمع المدني ومؤسسات الهيمنة والمجتمع السياسي ومؤسسات السيطرة والاكراه .

وتعود هذه الاستقلالية النسبية اساساً إلى نوعية وظائفهم كمنظمين ومربين وعلماء . . . الخ . . وإلى طبيعة عملهم « الثقافي ـ الاخلاقي » الخاص بتنظيم وهندسة الوعي وتأسيس تلك الانسجامية للوعي الطبقي الشيء الذي يعطيهم حرية نسبية تظهر في النقد والممارسة الفكرية الحرة[1] كما أن وضعهم كوسطاء وكوسائل للطبقات عن طريق تنظيمات ومؤسسات المجتمع المدني والسياسي يسمح لهم بتكوين تنظيمات خاصة بهم تتدرج وتتعقد انطلاقاً من المستويات الحرفية الفئوية (اتحادات المؤرخين ـ المهندسين ـ الكتاب ـ الأدباء مثلاً) إلى المستوى السياسي والفكري « احزاب ونقابات فكرية عامة » لها مواقفها السياسية ومناضلوها (التنظيم الكنسي مثلاً) .

وقد لعبت استقلاليتهم النسبية وتنظيماتهم هذه في فرز ظاهرة « استمرار » بعض المثقفين رغم زوال الطبقات الاجتماعية التي ارتبطوا بها عضوياً ، فالاكليروس كمثقفين عضويين للطبقة الاقطاعية في المجتمع الاقطاعي . . استمروا وما يزالون على قيد الحياة . . حتى في

---

(١) يمكن أن يحدث تناقض بين «الأعضاء الفعالين» للطبقة أي مالكي وسائل الانتاج ـ المادية والاعضاء المثقفين لها ، ولكن هذا التناقض لا يعمل إلى اعادة النظر في وجود الطبقة نفسها ، فعندما يتعرض هذا الوجود للنفي ، يلتئم التمل وتصبح الوحدة اكثر من ضرورة /في كتاب / جان مارك بيوتي/ **فكر غرامشي السياسي**/ ـ المرجع السابق .

المجتمع الاشتراكي (وجود رجال الدين المسيحيين في الاتحاد السوفياتي مثلاً) و« الأئمة والفقهاء والمثقفين الدينيين » مثلاً في المجتمعات الاسلامية ما يزالون في عافية منقطعة النظير . . . رغم أن تلك المجتمعات انتقلت من مرحلة « القرون الوسطى » إلى مرحلة الدولة ـ القومية والنظام الرأسمالي (بغض النظر عن شكله ، الكولونيالي) وتعيش بعضها مرحلة الانتقال إلى الاشتراكية، هذه الاستمرارية التاريخية هي عنصر مكون لمفهوم جديد عند غرامشي هو المثقف التقليدي .

المثقف التقليدي

يقول غرامشي :

« إن كل فئة اجتماعية أساسية[1] في اللحظة التي عامت فيها على سطح التاريخ ، آتية من البنية الاقتصادية السابقة قد وجدت على الأقل في التاريخ كما دارت عجلته حتى ذلك اليوم زمراً من المثقفين كانوا موجودين قبلها وكانوا يظهرون فضلاً عن ذلك بمظهر ممثلي استمرارية تاريخية لم يحدث فيها انقطاع ، حتى بنتيجة اعقد التغيرات واكثرها جذرية في الاشكال الاجتماعية والسياسية »[2] .

يفرز هذا النص وينتج عدة أفكار ، سيستثمرها غرامشي في تكوين مفهوم المثقف التقليدي بطريقة تحدد معايير « تقليدية المثقف » . لنأخذ مثلاً :

---

(١) الفئة والمجموعة الاجتماعية الاساسية في نظر غرامشي هي الفئة والطبقة التي تملك نمطاً للانتاج (الاقطاع/البرجوازية/البروليتاريا) أي أنها قادرة وحاملة لنمط انتاجي معين (الاقطاعي الرأسمالي ـ الاشتراكي والشيوعي قيادة يكفل لها قيادة المجتمع والهيمنة والسيطرة عليه .

(٢) جان مارك بيوتي/فكر غرامشي السياسي المرجع السابق ص ٣٣/٤٠/ نص لغرامشي .

الفلاسفة ورجال الدين ، هؤلاء المثقفون الذين يقدمون انفسهم ويصورون ، ذواتهم على أنهم مستقلون عن الطبقات الاجتماعية ويؤكدون في خطاباتهم وتصوراتهم على كونهم «أستمرارية تاريخية» لعصور الفلسفة الذهبية ورجالها كسقراط وافلاطون ، وتواصلاً خالداً ودائماً للسيد المسيح والنبي محمد . . . فوق التاريخ وقوانين التطور الاجتماعي هؤلاء يسميهم غرامشي « مثقفين تقليديين » . . ولكن ما هي المعايير المحددة لهم ؟ وما هي خصائصهم الاجتماعية ؟

إنطلاقاً من عمليات تكونهم ونشأتهم عبر التاريخ والطبقات الاجتماعية التي ولدوا معها وطبيعة الروابط التي شدتهم اليها والأزمات التي شهدتها « الكتلة التاريخية » لمجتمعهم يقوم غرامشي بتكوين عناصر التعريف الخاصة بالمثقفين التقليديين .

الخصيصة الأولى هي أنهم كانوا مثقفين عضويين لطبقات اجتماعية سابقة سادت في زمن معين وفي مجتمع معين ، وداخل نمط انتاج معين كذلك ، فذهبت ريحها ، وانحلت انظمتها ، وبقوا هم شاهدين على مجدها وتراثها الثقافي والروحي . . واحتفظوا باستمراريتهم التاريخية . . .

وتدل هذه الصلابة على قوة وكفاءة الأفكار ومنتجيها ، وقدرتهم على الاستمرار . . حتى ولو بقوا معلقين . . بدون ارضية طبقية واجتماعية يرتكزون عليها .

الخصيصة الثانية تؤكد أن المثقفين التقليديين يرتبطون داخل المجتمع الراهن بطبقة زائلة أو في طريقها إلى الموت رغم وجودها فهي لا تعتبر طبقة اجتماعية اساسية . . بل طبقة ثانوية . إن المثقفين التقليديين هم ذلك الحطام الثقافي الاجتماعي الذي بقي من انفجارات تاريخية سابقة وماضية . . ألا يبدو هنا رجال الدين الاكليروس

والفقهاء ، كأحسن مثال يجسد استمرارية المثقف التقليدي في مجتمع يرفض التفسير الغيبي ؟!

تحت تأثير مطالب واحتياجات النظام الرأسمالي كنظام يتنفس بالعلم ويسير بالتكنولوجيا ؟!

إن تقليدية هؤلاء العمال الذهنيين تظهر بالقياس إلى أنهم لا يرتبطون بطبقات اجتماعية صاعدة بل بطبقة وقوى اجتماعية داسها التاريخ هي . . . وعلاقاتها الاجتماعية وتنظيماتها المختلفة ، فالمثقفين الاصلاحيين الجزائريين مثلاً ، ومنهم ابن باديس - وبغض النظر عن القيمة الوطنية التي حملوها - لا يمثلون إلا استمرارية تاريخية ثانوية للتشكلية الاجتماعية الإسلامية وابهى عصورها : المجتمع الإسلامي في عصوره العباسية والأموية والراشدية - أنهم مثقفون عضويون لطبقات زالت ، تمثلت في الارستوقراطية التجارية والعقارية العربية الإسلامية والبرجوازية الجزائرية التقليدية[1] .

الخصيصة الثالثة تعني أن مجموع المثقفين التقليديين ينتجون ايديولوجيا تصورهم على أنهم مستقلون وممثلون لعصور تاريخية خالدة ولتراث روحي ثقافي فوق تاريخي ، وتعطيهم بذلك الوهم الايديولوجي القائل بعدم ارتباطهم بأي طبقة عن طريق حجبها لاصولهم الاجتماعية الطبقية ، وسترها لمواقعهم السياسية الفكرية - فهذه الايديولوجيا تمارس عليهم فعالية سياسية تتجلى في اعطائهم التضامن والتماسك الفئوي ، ودفعهم لتكوين وتأسيس تنظيمات مستقلة ومنفصلة عن الطبقات السائدة ، والهاب مشاعر الوحدة داخلهم وتأجيج ادارة الدفاع عن

---

(١) بخصوص هذه العلاقة انظر : مصطفى الأشرف . الجزائر أمة ومجتمع . ش . و . ن . ت . الجزائر ص ١٨٩ - ١٩٠ .

مصالحهم الفئوية واستقلاليتهم الفكرية الاجتماعية .

هذه الإستقلالية التي تتدعم وتتكرس بمعادلة وطريقة طردية مع السمات العضوية والتقدمية للطبقة الاجتماعية الصاعدة ، فكلما كانت الطبقة الأساسية ضعيفة البناء ، هشة التشكل ، ولا تملك « الاسمنت » الايديولوجي الذي يشد افرادها تدعمت استقلالية وتنظيم المثقفين التقليديين والعكس صحيح ، ففي فترات النهضة الايديولوجية السياسية لطبقة صاعدة تاريخياً ، وعبر لحظات ازمة « الكتلة التاريخية » الماضية ، وانحلال بنيانها ، يبدأ شمل المثقفين التقليديين في التفرق ذلك انهم يبقون « قصب السبق » في حركة الصراع الايديولوجي والسياسي بين الطبقات ، فكل واحدة تريد أن تحتلهم ، وتطمع لادماجهم في صفوفها وربحهم إلى جانبها ومشروعها الاجتماعي عن طريق تحويلهم تدريجياً سواء على طريق المناصب والمراكز المادية أو عن طريق الاحتلال الايديولوجي الذي يقوم به مثقفوها العضويون يقول غرامشي :

« إحدى أهم السمات الهامة لكل مجموعة اجتماعية تريد السيطرة على السلطة هي النضال الذي تخوضه من أجل إدماج وربح المثقفين التقليديين ايديولوجياً ، هذا الادماج في صفوفها ، يتحقق بسرعة وبفعالية ويتزامن مع إفراز تلك المجموعة الاجتماعية لمثقفيها العضويين[١] .

هكذا يصبح المثقف التقليدي « عضوياً » لطبقة اجتماعية[٢] صاعدة عن طريق تخليه عن « أمجاد وأوهام » طبقته الماضية أو عن طريق تبنيه لبرنامجها السياسي ـ الفكري او وفائه لانحداره منها وإنطلاقه من

---

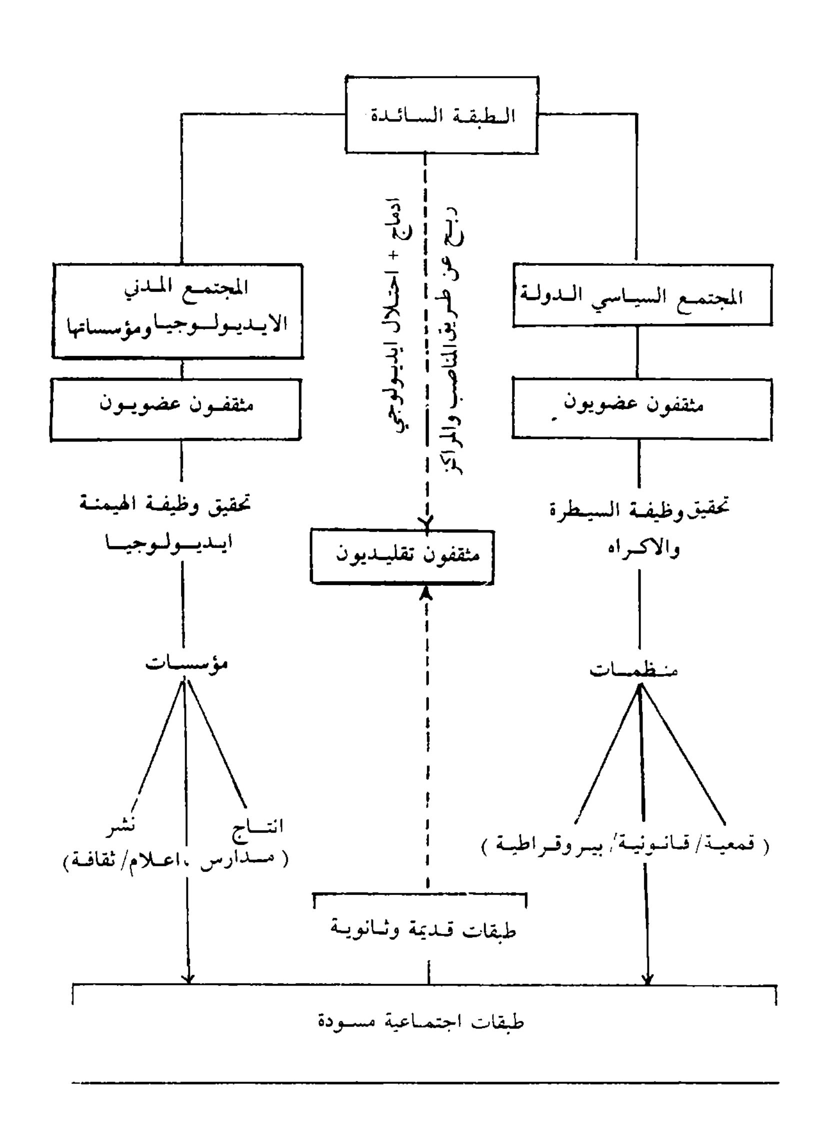
(١) Gramsci dans le texte المرجع السابق ص ٦٠٤ .

(٢) انظر مخطط رقم ٣، المثقفون والطبقات من هذا البحث.

رؤ يتها للعالم ،ونضاله في سبيل تحريرها من المصاعب والحواجز التي تقف في طريق حصوضا على الوعي المنسجم المعقلن ، .وتكوين انسجامية وشخصية تاريخية خاصة بها .

تلك هي اللحظات القوية والأساسية لتحليل غرامشي لمشكلة الايديولوجيا والمثقفين . تبقى ضرورة هي الخلاصة العامة للسيسولوجيا الغرامشوية المتعلقة بمنتجي وإنتاج البنية الفوقية في أي تشكيلة اجتماعية أو في تشكيلة اجتماعية ملموسة كـ« كتلة تاريخية » .

بالفعل أن غرامشي يطرح مشكلية الايديولوجيا والمثقفين في حقل تصوري موحد هو حقل الصراع الطبقي وممارسات الطبقات الاجتماعية سياسياً وايديولوجياً ، ذلك أن المثقفين هم منتجو وموظفو « البنية الفوقية والايديولوجية الذين يشكلون « الاسمنت » الذي يشد البنيان العياني والملموس لأي تشكيلة اجتماعية تاريخياً . ويظهر هنا العمل الايديولوجي السياسي للمثقفين كعملية إصلاح ثقافي اخلاقي ، للعالم من أجل التقدم الاجتماعي والانتقال إلى مرحلة نوعية عليا تحمل بذورها ومشاريعها طبقة اساسية صاعدة تتفجر تحت تأثير نضالاتها ـ سياسياً ، إقتصادياً وإيديولوجياً ـ تنظيمات المجتمع القديمة . . فيبني المثقفون بشظاياها وبقاياها « الكتلة التاريخية » الجديدة وفق تصور العالم الجديد الذي تدعو إليه هذه الطبقة الصاعدة .



مخطط ٣

المثقفون والطبقات الاجتماعية

غرامشي : حياة نضال وفكر في سطور

- ١٨٩١/ ولد انطونيو غرامشي يـوم ٢٢ جانفي في بلدة « آليس » كاقلياري بايطاليا .

- ١٨٩٤/ ١٩١١ / يتابع غرامشي دراسته في مدرسة دينية ويحصل على الشهادة الابتدائية لكن ظروف حياة عائلته المتواضعة تجبـره على تـرك المقاعد ليشتغل سنتين . بمسـاعدة امـه يعود ثـانية للدراسـة ، وينشر اولى مقـالاتـه في اليـوميـة التي تصـدر في « كـاقليـاري » تحت عنـوان « لـونيـو ساردا » . في سنة ١٩١١ يحصل على الباكالـوريا ويسجـل ـ بعد حصـوله على منحة ـ في « كوليج كارلو البرتو » بمدينة « تورين » ، بمعهد الآداب .

- ١٩١٢/١٩١٨/ يتابع غـرامشي دراسات في الآداب والحقـوق ، ويقوم باتصـالاته الأولى مـع الحركـة الاشتراكيـة في تورين ، ويتـدخل في مناقشة مواقف الحزب الاشتراكي الإيطالي من الحرب العالمية الأولى بمقالته « الحياد النشيط والفعال » ، بعدها يصبـح مباشـرة عضواً في هيئـة تحريـر جـريدة « افـانتي ! » . بعـد التمـردات الشعبيـة في ٢٣/٢٦ أوت ١٩١٧ وإيقـاف اغلب الممثلين الاشتـراكيـين لمـدينـة تـورين ، يصبـح غـرامشي سكرتير اللجنة التنفيذية المؤقتة لفرع الحزب الاشتراكي في المدينة .

- ١٩١٩/ يصـدر غرامشي بـالتعاون مـع منـاضلين ايـطاليـين هم

« طاسكا » ، « تراسيني » ، « توقلياتي » مجلة اسبوعية ثقافية اشتراكية « لودينو نوفو » ويصبح مديرها . في جويلة خلال الاضراب السياسي التضامني مع الجمهوريات الشيوعية لروسيا وهنغاريا يسجن في تورين ، بعد خروجه في الخريف يبدأ في تنشيط « مجالس العمال » و« مدرسة الثقافة » التابعة للمجلة .

- ١٩٢٠/ مع بداية الاضرابات العمالية في تورين ، يكتب وثيقة نقدية من أجل تجديد الحزب الاشتراكي الإيطالي ، هذا النص الذي اعتبره لينين قاعدة أساسية لتنمية الحركة العمالية ، يساهم في خلق مجموعة العمال الشيوعيين ويدعو إلى احتلال المصانع من طرف العمال ، مع المناضل « بوديفا » يؤسس رسمياً القسم الشيوعي للحزب الاشتراكي .

- ١٩٢١/ ينتخب في أول لجنة مركزية مؤتمر « ليفورن » الذي شهد تأسيس الحزب الشيوعي الايطالي على يده ويدي رفاقه الآخرين امثال بوديفا وتوقلياتي .

- ١٩٢٢ / يتزوج في موسكو بعد أن عينه حزبه ممثلاً له في الاتحاد السوفياتي . ويحضر المؤتمر الرابع للأممية الشيوعية .

- ١٩٢٣/١٩٢٥/ يعود غرامشي إلى إيطاليا حيث انتخب نائباً في اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي الايطالي خلال الأزمة التي نشبت بعد مقتل النائب الاشتراكي « ماتيوتيي » .

- ١٩٢٦/ يشارك في مؤتمر الحزب الثالث في « ليون » ويضع مع « توقلياتي » الاطروحات الخاصة بالاستراتيجية الجديدة للحزب .

- ١٩٢٧/١٩٣٦/ تقوم المحكمة الخاصة بالدفاع عن الدولة التي كونها الحكم الفاشي لموسليني بالحكم عليه بـ ٢٠ سنة سجناً ، في السجن

يبدأ في كتابة « دفاتر السجن » ، مؤلفه الاساسي تتأزم صحته ويصاب بأزمة عصبية خطيرة إضافة الى مرض السل الذي صاحبه في السجن ، ينقل إلى عيادة وفي اكتوبر يخرج من السجن بحرية جزئية .

ـ **١٩٣٧/** يحصل على حريته الكاملة ، ولكن تدهور صحته لم يمهله . يتوفى في ٢٧ افريل بحضور اخته ويدفن في مقبرة روما(١) .

---

(١) في هذه البيوغرافيا اعتمدنا كثيراً على بيوغرافيا غرامشي التي قامت بانجازها الايطالية **ماريا انطونييتا ماكيوكشي** في كتابها « **من اجل غرامشي** » الطبعة الفرنسية/ دار لوساي ـ باري ١٩٧٤ / ص /٣١٢/ ٣١٣/ ٣١٤.

المراجع .

١ ـ فرانز جاكوموسكي/ الاشكالية الماركسية ـ القاعدة والبنية الفوقية ـ مجلة « الحرية » ـ بيروت العدد ١٠ ـ ٩ ابريل ١٩٧٩ ـ السنة ٢٠ .

٢ ـ جورج طرابيشي / الماركسية والايديولوجيا دار الطليعة ـ بيروت ـ سنة ١٩٧١م .

٣ ـ د. فيصل دراج/ مفهوم الايديولوجيا عند أ. غرامشي صحيفة النداء ، ـ بيروت ـ ع ١٩٧٥ ، ٦ ابريل ١٩٧٦م

٤ ـ جان مارك بيوتي/ فكر غرامشي السياسي ـ ترجمة جورج طرابيشي دار الطليعة ١٩٧٥ .

٥ ـ جان تكسيه/ غرامشي : دراسة ومختارات/ ترجمة ميخائيل فحول منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي دمشق ١٩٧٢ .

٦ ـ مهدي عامل : مقدمات نظرية لدراسة اثر الفكر الاشتراكي في حركة التحرر الوطني .

ـ القسم الأول في التناقض ـ دار الفارابي بيروت ١٩٧٣

ـ القسم الثاني نمط الانتاج الكولونيالي ـ دار الفارابي ـ بيروت ١٩٧٦ .

7 - MARIA. A. MACCIOCHI, Pour GRAMSCI, Le Seuil, Paris 1974.

8 - MICHEL SIMON, Comprendre Les Idéologies. La Chronique Sociale, Paris. 1978.

9 - MARX - ENGLES, L'Idéologie Allemande. ES. Paris.

10 - GRAMSCI dans le Texte. ES. Paris. 1977.

11 - MOSTAFA LACHERAF, L'Algérie Nation et Société. SNED. Alger.

حوار مع عبد القادر جغلول
انتلجانسيا أم مثقفون؟

اجرى الحوار محمد بلحي

في تقديمها للحوار ، تقول جريدة « الجزائر ـ الاحداث » :

« عبد القادر جغلول[1] مدير مركز جمع وثائق العلوم الانسانية لجامعة وهران ، يتناول هنا قضية هي : دور ومكانة المثقف في المجتمع . والفرضيات التي يقدمها ، والنتائج التي يتوصل اليها ، يمكن بداهة الا تحصل على الإجماع والموافقة .

ولكن نعتقد أن الوقت قد حان لفتح نقاش حول هذا الموضوع . . واعمدة الجريدة مفتوحة » .

---

(١) ع . جغلول ، سسيولوجي جزائري ، من مواليد ١٩٤٦ ، له عدة بحوث ومؤلفات :

ـ **الفلاحون والثورة** ، دراسة مقارنة لاطروحات ف . فانون وكاسترو . دبلوم الدراسات العالمية ـ فلسفة ، الجزائر ١٩٦٨ ـ لغة فرنسية .

ـ **فرانتز فانون : ضبابية ايديولوجية عالم ـ ثالثية** ، دكتوراه درجة ثالثة ، باريس جامعة ٥ ، ١٩٧٢ ـ ل . فرنسية .

ـ **الاشكالية التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون** ، دار الحداثة بيروت ١٩٨٠ ، ترجمة ، لغة عربية (مترجم) .

ـ **سسيولوجية التاريخ الجزائري** ، دار الحداثة ، بيروت ، ١٩٨٢ ، لغة عربية (مترجم) .

الجزائر ـ الاحداث :

تطرح وتدافع في كتاباتك عن اطروحة تقـول بأنـه ليس هناك انتلجانسيا في الجزائر ، بل هناك مثقفون فقط ؟

عبد القادر جغلول :

نعم ، لم ولا يـوجد حتى الـوقت الحـاضـر ، فئـة اجتمـاعيـة منظمة ، يمكن أن نطلق عليها اسم الانتلجانسيا . ما هو موجود وما تبقى ، هو نتف أو سديم ضبابي ، يتكون من مجموعة من الافراد ، بدون أي نسيج فكري وثقافي يربط في ما بينهم .

مع أن هناك خطابات ؟

. . . صحيـح ، هناك خـطابات ، ولكنهـا ليست خـطابـات موضوعة أو مُنتجَة من طرف الانتلجانسيـا نفسها ، أي أن المثقفـين يعيدون غالبا انتاج خطابات وُجِـدت قبلهم ، ويحولـونها أو يغيرونها قليلا . هذه الخطابات انتجت اساسا في ميدان السياسة أو في حقول فكرية وثقافية خارجية عن المجتمـع الجزائـري . فهي أما خـطابات تأخذ لمصلحتها الخطابات الموجودة في الجزائـر أو الخطابـات الثقافيـة المنتجة من طرف الانتلجانسيات الاخـرى (الانتلجانسيـا الفرنسيـة والعربية في الشرق الأوسط العربي) .

ـ إن ظـاهرة انتـاج الافكار بـالارتباط مـع موديـلات أو نمـاذج فكرية خارجية فقط . . فكرة لا تصمد أمام النقاش .

ـ أحـد العناصـر التي تؤكد عـدم وجـود انتلجـانسيـا بـالمعنى

الحقيقي ، هو أن الخطابات التي يحملها المثقفون الجزائريون في الوقت الحاضر هي خطابات غير فكرية وغير ثقافية غالبا ، فهي خطابات تعيد انتاج خطاب ذي طابع سياسي على المستوى الفكري والثقافي .

*** ألا يعود هذا إلى التسيس المسيطر على كل مستويات الحياة الاجتماعية . . لأن المشاكل لم تحل بعد ؟**

ـ إذن هناك العنصر السياسي الذي يحدد بطريقة كثيفة حقل الثقافة والمثقفين ، فعندما تتظاهر الانتلجانسيا وتظهر ، فإنها توجد بواسطة اجهزة الدولة التي تتوظف فيها .

إن الخطاب الفكري والثقافي الخصوصي الجديد لا يوجد اطلاقا في نظري ، أي ذلك الخطاب الذي يستطيع أن يكوّن ويضع بناء فكريا وثقافيا منسجما لحال ووضعية المجتمع الجزائري اليوم ، مجتمع ١٩٨٢ . إن انعدام هذا الخطاب الفكري المنسجم في بلادنا مرتبط مباشرة مع الانعدام الكلي لأي تفكير نظري أو فلسفي حقيقي . فالاغلبية الساحقة من المثقفين يشتغلون وينشطون ويفكرون داخل ما يمكن تسميته بنزعة وضعية تافهة وسخيفة ، بدون طرح أو وضع أية نظرية للتحديدات التي تحكم المجتمع الجزائري اليوم .

يجب أن نعي خطوط القوة في عملية تكوّن عالم المثقفين في الجزائر فعلى هذا الأساس يمكن أن نفهم سيره الحالي وامكانيات تطوره . هناك ثلاث نقاط ، تستحق التحليل والاضاءة في نظري :

النقطة الأولى هي أن هناك نوع من اللاتوازن بين سنة ٦٢ و ١٩٨١ بين عدد المثقفين المُكوَّنين وانتاجاتهم . **فخلال عشرين سنة كونت الجزائر عددا من المثقفين يتجاوز على ما أظن ما انتجته في خلال ثلاث أو أربع قرون** . لدينا اذن ظهور مفاجيء لناس مثقفين ، هؤلاء الناس ستخطفهم أجهزة الدولة أساسا ، الأمر الذي يعني أن الشروط التي تولد فيها الأنتلجانسيا الجزائرية الحالية تكبح تجمعها وتكثفها كانتلجانسيا ، نظرا لأن المثقفين الذين تكونوا يشتغلون مباشرة في أجهزة ، ليست هي الاجهزة التي تسمح بتثبيت واستمرارية هذه الانتلجانسيا .

إن عشرات الألوف من المثقفين المتكونين يشتغلون كوكلاء غير منتجين تحديدا . فهم يعيدون انتاج مخططات التفكير والسلوك والقيم والممارسات المحددة من طرف الدولة الوطنية الجديدة التي ظهرت ابتداء من ١٩٦٢ .

والنقطة الثانية هي أن هذه النخبة المثقفة الجديدة التي كبرت بطريقة سريعة لا تملك ولا تستند إلا على تراث فكري وثقافي ضعيف .

وبالفعل ، فخلال المرحلة الكولونيالية ، لاحظنا ولادة انتلجانسيا قليلة العدد ، عانت كثيرا من اختلاف وتنوع واختلاط المراجع الثقافية والفكرية ، ومن الانقسام اللغوي . هاتان المشكلتان اللتان بقيتا بدون حل خلال تلك الفترة . **وستتوحد هذه الانتلجانسيا الصغيرة ، لا حول مشروع فكري وثقافي ، ولكن حول مشروع الحركة الوطنية السياسي ، الذي ستخضع له ،**

وستلعب اساسا دورا . منفذا وتطبيقيا له ، أي أنها ستقوم بدور المطبّق والمُنفِّذ الايديولوجي . أما النقطة الثالثة والاخيرة ، فهي تقودنا إلى ينابيع ومراجع تاريخية أكثر عمقا . قبل المرحلة الاستعمارية الفرنسية ، كان تاريخ الجزائر الثقافي ، لا سيما في القرن ١٧ و ١٨ م ، وبداية القرن ١٩ ، أقل ثراء من جارتيها تونس والمغرب . ففي الجزائر آنذاك ، لم توجد أية مؤسسة ثقافية كجامع القرويين بفاس أو الزيتونة بتونس أي لم يوجد أي مركز جامعي تستطيع الانتلجانسيا التكون والتواجد فيه .

إن مثقفي الجزائر اليوم يرثون تراثا محدودا على ثلاث مستويات ، مستوى التاريخ الثقافي القليل الثراء بالمقارنة مع جارتينا تونس والمغرب ، ومستوى التاريخ الاستعماري الفرنسي المطبوع بالتدميرات الثقافية عكس جارتينا ايضا ، واخيرا مستوى انفجار البنيات الضعيفة التي وجدت خلال فترة الاحتلال تحت تأثير بروز عشرات الآلاف من المثقفين الجدد الذين نسوا ماضيهم أو يتشبثون بمحطات ومواقع ثقافية فقيرة وقليلة الثراء من الناحية الاجتماعية والفكرية .

إن حظ ومأساة هذه النخبة ـ معا ـ هو كونها نخبة غير مرهونة لأي ماض ثقافي أو أية نخب مثقفة بشيء ، إنها انتلجانسيا معلقة في الفراغ بمعنى ما . .

*** إن مصطلح « الفراغ » يؤدي إلى الضبابية والغموض . . في نظري ليس هناك فراغ . .**

ـ إنها ، انتلجانسيا معلقة في الفراغ ، بالقياس إلى أن المثقفين

الجزائريين اليوم لا يستطيعون مدّ جذورهم التاريخية في تاريخ ثقافي طويل .

فالانتلجانسيا الجزائرية توجد في الحاضر فقط ، ولها مشروع عليها أن تعرِّفه وتحدده ، ولكن ليس لها تقاليد ثقافية تاريخية ثرة وثرية تستطيع أن تتعلق بها ، وأن تؤسس عليها مشروعا نقديا جديدا .

*** لنتكلم الآن ، حول العمل النظري كما صاغه الفيلسوف الايطالي أنطونيو غرامشي ، أي مفهومي المثقف العضوي والمثقف التقليدي . هل هذا هو واقع الحال في الجزائر ؟**

تكلمت قبل قليل عَن المثقفين المنفذين ، يجب القول أن هناك أقلية من المثقفين ليست فئة منفذة أو منتجة بسيطة للمعارف والخطابات ، أو فئة من رجال الدين أنها فئة مثقفة ما زالت تحتفظ بممارسات ثقافية مدرسية سكولاستيكية .

ـ صحيح ، إن مثقفي اليوم لهم تراث ثقافي هام نسبيا ، يستطيعون التجذر فيه والعودة اليه ، ولكن تاريخيا يعتبر هذا التراث ضعيفا بالمقارنة مع بلدان المغرب العربي أو البلدان العربية الاخرى . إن الشروط التي تكونت وأُنتجت داخلها هذه النخبة المثقفة الجزائرية الجديدة ، عملت منذ الاستقلال على ألا تعرف هذه النخبة الجديدة التقاليد التاريخية الثقافية ، بسبب الحركة الاجتماعية السريعة خصوصا التي عرفتها البلاد ، وبسبب شروط الولادة والتكون تلك بالذات .

إن الفراغ موجود على مستوى التجذر الظاهري ، أي علاقة وعي النخبة مع ماضيها .

المتخرجون الجامعيون في العلوم الانسانية مثلا ، لا يستطيعون رؤية انفسهم بطريقة عامة في التاريخ الجزائري . يمكن أن نسأل اغلب المجازين في التاريخ عن مؤرخي النهضة التاريخية الجزائرية ، أي مؤرخي نهاية القرن ١٩ م وبداية القرن العشرين ، سنكشتف أنهم لا يعرفون أي مؤرخ لحسن أو لسوء الحظ .

ماذا يمثل مؤرخ كـ «الحفناوي» أو بوليفة أو أديب كشكري خوجة أو أبو اليقظان بالنسبة لمؤرخ أو لطالب أدب شاب ؟ أو ماذا يعني مُشرِّع وحقوقي « كابن شعيب أو ابن موهوب » بالنسبة لطالب حقوق شاب ؟

الواقع حاليا ، هو انحلال وتحطم النسيج الثقافي الكلي ، وأحد عناصر فهم ووعي هذا الانحلال هو عدم القدرة على رؤية النفس في فترة تاريخية أو في استمرارية ثقافية . إن الشيء الواضح في هذا السياق هو التقطع ، لا الاستمرارية صحيح أن هناك حفاظا ومحافظة على الاستمرارية من طرف مجموعة من الناس تسميهم انت رجال الدين .

أما بالنسبة للتفرقة التي يقوم بها الفيلسوف الايطالي غرامشي بين المثقف العضوي والمثقف التقليدي ، فإنها تبدو لي غير قابلة للتطبيق على واقع البيئة والوسط الثقافي الجزائري الحالي . فالمثقفون التقليديون يتناقص عددهم من يوم لآخر ، أما العضويون فإنهم لا يوجدون مطلقا ، نظرا لتشكل النسيج الثقافي العام وتحوله وتغيره .

من المحتمل والممكن أن يوجدوا فيما بعد ، أما حاضرا ، فما هو موجود يتجسد في المثقفين الذين يتطورون ويشتغلون في أجهزة الدولة ، أي المثقفين الموظفين .

*** اليس هؤلاء مثقفي مرحلة الانتقال ؟**

- بالنسبة للمثقفين التقليديين ، أي اولئك المثقفين الذين يحملون ويدافعون عن نمط قديم من الحضارة والتنظيم الاجتماعي ، المثقفين الذين ارتبطوا خصوصا مع الأرستقراطية التجارية المدينية ، ومع البنيات الريفية القبلية . هذا النوع من المثقفين تكفل بتدميرهم الاستعمار ، عن طريق التهديم أو السحق أو التهميش ، أي أن المثقفين التقليديين كمجموعة مُتَبَنْيِنَة ومُسمَنتة اختفوا ، ولكنهم ما زالوا موجودين كافراد فقط .

*** وما زالت خطاباتهم الثقافية حية تعيش . . .**

- نعم ، ما زالت خطاباتهم موجودة ، ولكنها مُحوَّلة ومغيَّرة تغييرا كبيرا ، فما ينمو حاليا في الجزائر ، ليس مجموعة من المثقفين التقليديين ، بل هو مجموعة من المثقفين المقلِّدين الذين لا ينطرحون بطريقة فعالة في اطار وسياق تقاليد ثقافية تاريخية طويلة ، ولا يشكلون بتاتا المتابعين لها . إن ما نلاحظه هو تكون مجموعة تعبيء وتنفخ بطريقة شبحية ماض أصبح مثاليا واسطوريا ، ليكون ردا وجوابا على مشاكل اليوم والحاضر . وهذه المجموعة تتكون على اساس تفسير جديد للاسلام ، أي على اساس ما يسمى النزعة

الاصولية ، نزعة العودة إلى الاصول ، التي تجتازها عدة تيارات فكرية .

أما في ما يتعلق بالمثقفين العضويين ، فيبدو لي أنهم منعدمون وغير موجودين حاليا وهذا راجع عموما ، ليس للمثقفين انفسهم ، بل بسبب التحولات المجتمعية التي جرت خلال فترة الاستعمار وخلال الحرب التحريرية وخلال فترة الاستقلال ، الأمر الذي أدى إلى انحلال وتدمير القوى الاجتماعية التي وجدت في الجزائر . هكذا ظهرت علاقات اجتماعية جديدة لم تتكثف وتتجسد بعد في قوى اجتماعية منسجمة ومستقلة تستطيع انتاج مثقفين عضويين خاصين بكل قوة اجتماعية منها . على العكس من هذا هناك المثقفين الموظفين .

*** هل هناك مَسار أو سياق لتوظيف المثقف اكثر من أي شيء آخر ؟**

- إن المثقف الموظف هو أولا وقبل كل شيء وكيل الدولة وعميلها أو ما يمكن تسميته بوكيل التنمية .

ولتلخيص تفرقة غرامشي بين المثقفين التقليديين والعضويين ، يبدو لي أنه من المستحب تعويض هذين المصطلحين بمصطلحين آخرين هما : المثقف المقلِّد والمثقف الموظَّف . . ولكن المشكل الحقيقي والمهم يبقى فيما نقصده عموما بالمثقف أو المثقف النقدي على وجه التحديد والتخصيص .

*** لننطلق من بديهية أن خاصية ومهمة المثقف الاساسية هي التفكير ؟**

ـ كما قلت سابقا ، لا توجد انتلجانسيا ، أي مجموعة اجتماعية حقيقية ، لها وظيفة انتاج رؤ ية نقدية أو دراسة المجتمع والاستماع إلى حركاته ، لوضع وبناء مفاهيم ومصطلحات تفسر التغيرات الواقعية وتصيغ الطموحات الحقيقية التي تعتمل فيه .

إن المثقف المقلِّد هو مثقف نقدي بمعنى ما ، ولكنه ليس مثقفا نقديا ايضا بالقياس إلى أن حدود نقده تتوقف عند مقارنة ما هو قيمة خالدة أبدية ثابتة وغير متغيرة . . الخ بسلوكات وعلاقات الوقت الحاضر .

وفي نفس الوضعية ، يوجد المثقف الموظف ، فهو يقوم بعملية نقد ولكنه ليس مثقفا نقديا ، نظرا لكونه ـ تماما كالمثقف المقلِّد ـ ينطرح داخل نموذج أو منوال معطى ، وما ينقده ليس هذا النموذج ، بل ملاءمة وتكيف أو لا تكيف هذا النموذج نفسه مع التطبيق المجسد والملموس له . بتعبير آخر نقول في كلتا الحالتين ، هناك قيمة ايديولوجية ـ سياسية معطاة ومطروحة قبليا كقيمة مطلقة ، ينطلق منها الاثنان في عملهما .

في جزائر اليوم ليس هناك انتلجانسيا نقدية ، أي مجموعة اجتماعية ، ما يوجد حقيقة هو فرديات مثقفة . . .

. . . تحاول فبركة خطاب أو فكر ؟

ـ نقدية ، ولكن على مستوى فردي ، يعطي لسلوكها النقدي الجديد طابعا فرديا . أحد أهم الأمثلة هي حالة الأستاذ « مصطفى الاشرف » ، هذا المثقف الذي يحاول أن يقوم بعمله ومهمته كرجل دولة ، وكمثقف نقدي في آن واحد . إن مثال الاشرف مهم جدا ، لأنه يبيّن أن المثقف النقدي ليس هو بالضرورة المثقف . . .

*** . . . المشاغب !**

ـ لا ! ليس هو المثقف الذي لا يبتل أو يتسخ ! إن مسلك ومبادرة « الاشرف » تتلخص في أن يكون المرء موظفاً ورجل دولة ، وأن يحاول في نفس الوقت التفكير في المجتمع وادخال قيم جديدة كمثقف نقدي .

*** إن النقاش والعراك والجدال الفكري الشرعي القانوني ، الذي هو خاصية المثقف ، لا يجعله بالضرورة مضادا للدولة لأنه قام بعملية التفكير !**

ـ نعم ! إن المشكل الذي يصعب فهمه نظريا ، وحله تطبيقيا هو العلاقات بين المثقف والدولة في مجتمع كمجتمعنا .

*** أي علاقة المثقف بالسلطة ؟**

ـ أنا افضل أن أقول علاقة المثقف بالدولة ، وما يجب طرحه هنا بطريقة واضحة هو أن المثقف ليس الدولة ، وما دمنا نفكر بأن

المثقف هـو الدولـة ، فلن تكون هنـاك امكانيـة لتشكل انتلجـانسيا حقيقية . إن وظيفة الدولة هي تسيـير المجتمع ، أي تشغيـل مختلف عناصر التسيير والسيطرة على المجتمع ، بينما وظيفة المثقف ـ اكـررها مـرة اخرى ـ ليست السيـطرة عـلى المجتمـع ، بـل الانصـات لهـذا المجتمـع من اجل صيـاغة التحـولات التي تجـري داخله فكـريـا . انطلاقا من هذا الشرط فقط يستطيع المثقف القيام بدوره ومهمتـه ، أي فهم ما يجري وعرضه ، وصياغة آفاقه وآفاق المجتمع .

إذا كان المثقف وكيلا ، ينفذ ما تسطره الدولة ، فإنه سيكفّ على أن يكون مثقفا ، ولكن هذا لا يعني أن الانتلجانسيا كما عرفنـا تكونها ، لا بد أن تولد وتعمل خارج جهـاز الدولـة ، ففي شروط تطور مجتمعنا ، وبروز الدولة الوطنية وشكلها المختلف عن تكـون الدول الوطنية في اوربا القرن ١٩ م يعتبر تكـوين انتلجانسيـا وفق نمط ليبرالي ، خارجي عن الـدولة حلما واستحـالة مـوضوعيـة ، فما يجب الوصول اليه هو أن يستطيع مثقفونا أن يكونوا مـوظفي الدولـة ومثقفين حقيقة في نفس الـوقت . هذه هي الصعـوبة المـزدوجة التي ترجع لخصوصيات المثقفين انفسهم والدولة كذلك .

*** ولكن يجب الحذر من الوصول إلى أن يكون لدينا مثقفـين مكتبيين اداريين ومتبقرطين ، يعدلون ويولفون ويخربشون بـطريقة بسيطة خطابات ما ، ويعتبرون بهذا منتجين بسطاء للرداءة كشكـل للسلطة الفكرية والثقافية .**

ـ إن مشكل الرداءة مشكل هـام جدا ، ولكن ظـاهرة وجـود مثقفـين رديئيين ليس مشكـلا في حد ذاتـه ، ففي كـل بلدان العـالم

هناك مثقفين من هذا النوع ، الشيء المهم فعلا ، والذي يجب أن نحدده حقيقة هو الرداءة كعلاقة فكرية وثقافية موجودة على مستوى البنيات الثقافية . إن الرداءة بالنسبة لي ليست وليدة الصدفة ، ولا هي ظاهرة تعود للفروقات الفردية داخل الانتلجانسيا بل كونها ظاهرة اصبحت ضرورية بشكل أو آخر . .

*** إنها المرض السائد في المجتمع الجزائري اليوم !**

ـ إذا كانت هناك رداءة ، فهذا يعني حقيقة عدم وجود انتلجانسيا . إن الرداءة تنتج من أن المثقفين لا ينتجون جماعيا افكارا جديدة ، فليس هناك ، غالبا إلا انتاجا فكريا ممسوخا ، ومشوها لخطابات فكرية وثقافية أخرى ، فهي أما خطابات سياسية أو خطابات من انتاج انتلجانسيات اخرى . إن هذا اللاتوازن والتفاوت الكبير بين عدد المثقفين وضعف نوعية انتاج الافكار والمعارف الجديدة هو الذي يطرح المشكلة بحدة . يجب اذن تعيين علاقة الرداءة تلك وتحديدها بالارتباط مع تناقضات التكوين والتعليم ، نظرا لأن مثقفي **١٩٨١** هم مثقفون مروا وعرفوا غالبا انظمة التكوين والتعليم الموجودة منذ ١٩٦٢ . **إن الرداءة هي فدية أو ثمن تعميم التعليم بمقياس ما فالقيام بتفجير بنيات النظام الكولونيالي المدرسية ، وادخال الآلاف وملايين الاطفال إلى المدرسة ، كان لا بد أن يفرز هبوطا نوعيا في مستوى التكوين نظرا للمشاكل الموجودة ، أي أن الارتفاع الكمي ، لا بد أن ينتج هبوطا وتدهورا نوعيا بالضرورة أن المشكل هو رؤية هذه الظاهرة كظاهرة طبيعية** . وبمعنى ما ، نقول إذا كان مسار الرداءة هو هذا

فقط فليس هناك أية مأساة أو كارثة ، ربما لأن هذا المسار لحظة ضرورية : لحظة تحقيق الديموقراطية ، كما أن المرور من نظام تعليم باللغة الفرنسية إلى نظام معمم باللغة العربية افرز هو الآخر هبوطا في نوعية ومستوى التعليم .

هاتان الآليتان ، كان من الممكن أن تكونا لحظة سقوط أو أخذ انفاس فقط ، وبعدها تأتي حركة نهوض ، ولكن المشكل الحقيقي هو أن البنيات الثقافية وكذلك الهياكل المدرسية لم تتغير ، كان من الممكن تعميم التعليم وتحقيق ديموقراطيته بدون أن يؤدي هذا إلى هبوط وتدهور بنيوي في نوعية التكوين، لو قمنا باعادة بناء هياكل المحيط الثقافي لتلبية حاجيات هذه الديموقراطية وذاك التعميم . لكن ما حدث هو العكس ، ذلك أن المنتوجات الثقافية التي تقدم للاجيال المثقفة الجديدة المكونة عموماً في نظم التعليم ، لم تتطور كمياً ونوعياً ولكنها تدهورت .

إن تعريب التعليم مثلا ، يفترض توزيعا كثيفا وكبيرا للكتاب للعربي ، والقيام بالترجمة والاستيراد ، ولكن ما نلاحظه اليوم - رغم المجهودات المبذولة - هو نقص وقلة الكتاب العربي ، فهو ما يزال مشكلا ، بينما اصبح التعريب واقعا وحقيقة - هذه هي أحد آليات الرداءة والتفقير الثقافي ، وستتكثف وتتوسع وتستمر هذه الظاهرة ما دامت البنيات الثقافية الضرورية لم تظهر بعد . لهذا لا يمكن التفكير في تكوين وتكوّن انتلجانسيا كبيرة ما دامت قاعدتها تتكون في ظروف رديئة حتى الوقت الحاضر .

تبعا لهذا ، لا يمكن أن يحدث في قمة الهرمية الثقافية إلا

شيئـان أثنـان : الاول هو تواجد مثقفين رديئين ، يكتبون اشياء رديئة وينشرونها في ظروف رديئـة ايضا . والثـاني هو بـروز فرديـات مثقفة حقيقة استطاعت أو تستطيع الظهور ولكنها ليست ممثلة للقاعـدة ولا معبرة عن البنية ، لأنها فـرديات استثنـائية سـرعان مـا تصمت رغم انتـاجها الثقـافي الجيد ، نـظرا لأن ظروف النشـاط والعمـل صعبـة كثيرا ، ولأن المحيط الثقافي منعدم وغير قابل للعطاء الفكري .

*** ألا يمكن القول أن ظاهرة الرداءة ترجع اسبابها إلى وجـود اجماع ما ، يبعد كل فرد له رؤية جديدة للاشياء ؟**

ـ كثيرون هم الجامعيون الذين كتبوا مقالات أو كتبا مهمة . . واختفوا ! عنصر آخر يرتبط بالخارج ، وهو أن هناك مثقفون قـادرون على انتاج افكار ومعارف جديدة ، لا ينشرون انتاجهم في الجزائر ، ولكنهم يطبعونه في دور النشر العربية أو الفـرنسية في المشـرق العربي أو فـرنسـا . إن هنـاك شكـل من هجـرة الادمغـة . وتعتبـر تلك المـطبوعـات وسيلة للالتحـاق وألاندمـاج فـي انتلجانسيـات المـركـز (بـاريس ، لنـدن ، بيـروت ، دمشق . .) ، لا وسيلة أو طـريقـة لتثبيت دعائم وأسس انتلجانسيا في الجزائر .

إذن ، مـا هو مـوجود ، ليس عـدد النـاس الـرديئـين وكميـة الانتاج الرديء بل علاقة اجتماعية ـ ثقافية هي الرديئة ، فكل ما لا يتمـاشى ولا يتفق مـع اشكـال الانتـاج الفكـري الممسـوخ والقيم السـائدة ، لا يستـطيع المـرور من سد تلك العـلاقـة ، فيهـاجـر أو يذهب بعيدا عن جدرانها ، ويصبح لدينا بـالتالي نسق لاعـادة انتاج الرداءة .

*** أريد أن نواصل الحديث دائما داخل منطق الرداءة هذا . هناك ظاهرة أخرى ، رموزها تدل على آثارها ، هي تملّك فئة معينة لمناصب جهاز الدولة . نشاهد مثلا في التليفزيون شخصا واحدا ، يحتكر حصصا تخص موضوعات تبدأ من الفلسفة إلى الاسلام مرورا بامراض الاسنان والاسهال . . بايجاز هناك فئة تحتكر بنيات ثقافية تابعة لنظام احتكار الدولة !**

ـ هنا ـ وأؤكد على هذه القضية ـ ينطرح المشكل الاكثر اهمية ، والذي يحدد ظروف تكون انتلجانسيا في الوقت الحاضر ، فعلى المتسوى العددي الكمي اصبحت الشروط تسمح بظهور هذه الانتلجانسيا ، ولكن المشكل العويص هو كيفية الانتقال من الكمية إلى النوعية ، كيف ننتقل من نتف من المثقفين الموظفين إلى انتلجانسيا حقيقية ، قادرة على انتاج معارف وحقائق حول مجتمعها ، وباستطاعتها وضع قيم ومعايير جديدة ، أي كيف نصل إلى تكوين انتلجانسيا طليعية .

بالفعل ، **إن أحد عناصر تكونها هو مشكل احتكار الدولة لمجال الثقافة** ، انه مشكل معقد : ماذا نقصد باحتكار الدولة ؟ إذا كنا نعني به كون مجموع وسائل النشر والطبع ملكية للدولة ، فإن هذا الاحتكار يعتبر ضمانة للمثقفين من حيث أنه يكفل ويسمح للمثقفين بالعمل والنشاط والتطور بعيدا عن تناقضات السوق ، كسوق ثقافية من نوع رأسمالي ، سيساعد هو الآخر ربما في حالة وجوده على تقوية وتدعيم سوق الرداءة . . إن المشكل الحقيقي في هذا الاحتكار الدولي هو مشكل التسيير ، تسييره .

بصيغة اخرى ، أن المشكل المطروح هو معرفة ما إذا كان احتكار الدولة لملكية وسائل النشر . . الخ يتطلب مثقفين موظفين يسيطرون على مقاليد ودواليب الثقافة ، أم أنه يسمح باشكال تسيير ديموقراطية لمختلف ادوات عمل الثقافة ونشاطات المثقفين والمفكرين (تعاونيات مسيرة من طرف المنتجين المثقفين مثلا . .) .

على مستوى الجامعات المحيطية (وهران ، قسنطينة ، عنابة . .) نلاحظ ظهور مناخ جديد . في قطاعات معينة بدأت نويات أو بذرات من الانتلجانسيا تتكون وتبزغ . فهناك ازدهار في النشر والطبع . جامعة وهران مثلا لها خمس مطبوعات دائمة ومستمرة ، رغم أنها تعاني من مشكلة الوصول إلى ميدان القراء الواسع ، كميدان تأثير وفعل ومناقشة يسمح ويساهم في خلق النسيج الثقافي وتثبيت هذه الانتلجانسيا الوليدة ، فالمنشورات الجامعية تبدو في الوقت الحاضر منشورات هامشية بعيدة عن قطاع القراء العريض .

لا يمكن للمثقفين الجزائريين أن ينتظروا كل شيء من السلطة ، أو السلطة نفسها عليهم أن يتحملوا مسؤولياتهم كمثقفين بدون أن يفكروا في ارضاء أي كان أو الرضا من أيّ كان .

إن المهمة الحالية هي تكوين انتلجانسيا وطنية حقيقية قادرة على اعادة بناء وتحقيق انسجام وتحريك ديناميكية بيئة ثقافية تعرضت للتفجير والتفقير ويعتبر هذا سبقا مع الزمن ، لتدمير تلك النزعة الفكرية الوضعية التوفيقية المسطحة ، وذلك النفاق المزدوج وتلك الرقابة الذاتية : هذه العناصر المكونة لنسيج الرداءة

العنكبوتي ، الذي بدا لحسن الحظ يتعرض لضربات ومبادرات الفرديات المثقفة الاصيلة المتعلقة حقيقة بالخلق الثقافي والفكري .

بهذا الثمن وحده ، يستطيع فكر نقدي حقيقي ومستوعب للتقاليد التاريخية والاهتمامات الحاضرة ، وقادر على ابتكار وابداع فكر جماعي متنوع ومتملك للتيارات الفكرية العالمية الكبيرة ، ومستمع ومهتم بحركات وتغيرات مجتمعنا العميقة . . بهذا فقط يستطيع هذا الفكر النقدي تعريف وفهم وتنشيط وانتاج معارف وقيم ومعايير مشروع مجتمعي متحرر ومحرِّر وموِّحد حقيقة .

الجزائر ـ الاحداث ، ع . ٨٤٦
٧ ـ ١٣ جانفي ١٩٨٢ .
اجري الحوار محمد بلحي

ملف النقاش

تمجيد المثقف الميداني

بقلم خالد بن ميلود
نقابي ، مدير عيادة دريد حسين ـ الجزائر

نحن نتكلم هنا ، عن المثقف الميداني التطبيقي ، وليس عن مثقف البراكسيس (أي المثقف الذي يجمع النظرية والممارسة ، ع . ب) . . . الذي يمثّل ويعبر عن تصور آخر ، ستكون لنا بدون شك فرصة التكلم عنه يوما ما ، ويعني هذا أننا لسنا مهتمين بجميع فئات المثقفين الاخرى الكثيرة . فهناك المثقف المحترف الذي يرغب ويريد ويصل بعض المرات إلى العيش بواسطة « انتاجاته الثقافية » ، وهناك المثقف / الانتلجانسيا بفكره التكتلي وكفافه واكتفائه الذاتي ، وهناك المثقف المحاضر في الملتقيات الدولية ، وهناك المثقف الناشر والمثقف اللامفهوم ، والمحتال ، والمزيف ، والبحّاثة ، والمتخصص ، وصاحب القلم الكبير ، والمثقف النقّالة والمكبوت ، واللامعروف ، والمثقف الذي اضاع محيطه ، والوحداني ، والطليعي والمخترع ، واليائس الذي تهاوت احلامه واوهامه ، والمثقف النرجسي الذي يدّعي في كل وقت « أنه قال ذلك . . » . . .

لا لكل هذه النسخ من المثقفين !

اننا نقوم بتمجيد كلّي للمثقف الوحيد الذي يهمنا ، أي المثقف الميداني التطبيقي الذي سنعرّف ونعرف هويته فيما بعد .

إن المثقف يمارس مهنة ، حرفة أو نشاطا اقتصاديا ، ولا يطمع ابدا في اجرة أو مكافأة على كونه مثقفا طبعا ، يجب عليه أن يكون متعلما ومتكونا ومجهّزا بادوات ومعلومات لغوية ومفاهيمية كافية ، وجامعا لكمية من المعارف ، وقابلا للاستزادة من المعرفة والنهل منها .

ونحن نرى أننا لا نستطيع مُمَاثَلته بحامل دبلوم أو شهادة ، ذلك أن الامثلة كثيرة عن حاملي الشهادات والدبلومات ، بدون أن يكونوا مثقفين ، وعن المثقفين حقيقة الذين لا يحملون أو يملكون أية شهادات .

إن المثقف يمارس مهنة ، وهو بهذا ، بعد ، يتميز ويتفرد . وهذه المهنة حتى وإن لم يخترها تماما ، يقوم بها وينخرط في سلكها ، ويتحتم عليه أن يعيش من مردودها ، في مقابل هذا ، يجب أن توفر له ذلك الرضا عما يقوم به ، عن فعله وممارسته ، أي أن تعطيه امكانية استثمار جهوده وتفريغ طاقاته الاكثر نبلا : طاقته الخلاقة .

بكلمة اخرى ، إن المثقف ليس هو ذلك المرتزق الذي يملك اجرة مهنية فقط ، وينفذ حركات وافعال وسلوكات أُملِيَت عليه بهدف تجاري محض أو متعلق اساسا بالخبز والعيش . ففي ممارسته المهنية ، وحياته ، يقوُم المثقف بالتفكير ، الذي يعتبر الصفة الجوهرية لايّ مثقف ، ولكن ما معنى التفكير؟ وفي أي شيء ،

وحول ماذا يجري هذا التفكير ؟

إن الفكر هو الكفاءة والقدرة الاولى للوعي البشري ، ويعني هذا البحث والتنقيب داخل الوعي . فالفكر هو الفعل الذي يكف الوعي البشري بواسطته عن أن يكون انعكاسا بسيطا ، تسجيليا وغير فعال والتقاطا فقط ، ذلك أن هناك تراكم وتنظيم وتحديد وتصنيف ومقارنة وربط علاقات بين الاشياء والظواهر ونسيان وتذكر وتمثّل واستعادة صور وافكار داخل هذا الوعي .

إلى حد الآن ، ما زلنا في مستوى التعريف البسيكولوجي ، ويجب التذكير بالمناسبة هنا أن الفكر هو خاصية النوع البشري ، وتبعا لهذا فقط ، يمكننا القول بأننا موهوبون بـ « فكر ووعي » ، ويعني هذا أن نشاطنا الفكري غير مرتبط البتّة بوجودنا « البيولوجي » .

حقيقة ، كل وعي بشري ، نظرا لكونه صفة انسانية ، هو وعي يقوم بالتفكير . فيما يهمنا ، نحن نتكلم على مستوى اكثر تبلورا من حيث التفكير والفكر ، إننا نقوم بعمليات المراجعة والمقارنة والمساءلة التي لا نمارسها بالضرورة في حياتنا اليومية أو نشاطنا المهني .

هناك الكثيرون ، الذين لا يكتشفون إلا في أُخريات حياتهم ووجودهم التساؤلات الاكثر حسما ، كهدف مؤسسة اقتصادية أو التزام ايديولوجي أو روحي مثلاً ، أو معنى الحياة بكاملها ، وهناك اناس كثيرون يعيشون حياتهم بكاملها بدون أن يطرحوا أي سؤال أو تساؤل ، ولا يعود هذا إلى نقص ثقافي أو فكري أو مدرسي .

لقد قلنا بضرورة امتلاك بعض العتاد الفكري والعملي - الاداتي ونؤكد في هذا السياق على خاصية اولى هي أن هناك قدرة فطرية أو مكتسبة تدفع الانسان إلى التساؤل ، والرغبة في المعرفة والفهم ، وهذه القدرة على الفهم سيستغلها المثقف الميداني في عمله أولا وفي حياته الاجتماعية والمهنية بعد ذلك .

ولكن التفكير في ماذا ؟ وحول ماذا ؟

إن السؤال واسع ، ولكن يمكن تكثيفه في كلمة واحدة هي : إن المثقف الميداني العملي يفكر كالآخرين حول **المعنى والدلالة** ، معنى ما يفعله ودلالة ما سيمارسه ، ومعنى ما يدور ويجري حوله ويهمه أو يمسه ، ويرتبط به ويمر به .

وعلى عكس الآخرين ، يجري هذا البحث عن المعنى في الميدان العملي وليس في المخبر ، أي يجري في الميدان الذي يتواجد فيه ، وعبر علاقاته الاجتماعية الملموسة . ففي خلال ممارسته وحركاته وسلوكاته الاجتماعية المندمجة في الحياة يطرح الاسئلة على نفسه . ومن خلال نشاطاته المشبعة بمعاني ودلالات اجتماعية خصوصا يستطيع هذا المثقف القيام بالتفكير . هنا نرى خاصيته الثانية : إنه رجل يقوم بتفكير نشيط ، ديناميكي وحركي ، متمفصل ومنطرح داخل الواقع الاجتماعي الذي يعيش فيه .

أما الخاصية الثالثة التي تطبع المثقف الميداني الذي تكلمنا عنه . والذي قلنا أنه تبنًى والتزم بمعنى ما ، باعتباره منخرطا ومندمجا في مشروع اجتماعي وجماعي ، فهي ضرورة أن يبحث عن معنى خاص به ، هو قسطه الذي يريد أن يضيفه إلى المعنى الجماعي .

وهـو يختار هـذا المعنى الشخصي بكل حـرية وبـالارتبـاط مـع عـدة عـوامل وظـروف موضـوعية وذاتيـة ، عقلانيـة وعاطفيـة . . الخ . وسيجد هذا المعنى الشخصي الخاص به ، بمجرد ظهوره وبـروزه في مواجهة أو قبالة أو في نزاع مع المعنى الاجتماعي الجماعي الموجود .

وفي مـواجهة أو قبـالة هـذه الخيـارات التي تمتـد من الشـذوذ والنزعة المضادة للانسان ، إلى قمم الشمائل والفضائل ، يجب عليه أن يجد بكل حرية احسن معنى لـوجوده وممـارسته ، مـع كل مخـاطر المسؤوليـة التي يتحملها ويعتـرف بهـا . وسيختـار هـذا المعنى تبعـا لقدراته الوراثية والتاريخية والعاطفية والاخـلاقية والغـريزيـة ، وتبعا لقَدَرِ وجوده نفسه ، وشرط مجتمعه الانساني ، أو عـلى الاقل مجتمعـه الصغير المحيط به .

وبمتابعة مسعـاه ، سيجد هـذا المثقف نفسه مُجْبَـرا على وضـع وتحديد فكره الناتج عن ممارساته وتجـاربه ، ومـرغما عـلى البحث في مبررات ما يقـوم به أو مـا سيفعله ، ويمكنه بعـد ذلك أن يصـل إلى الفكـر النقدي ، حينـما يجد نفسـه أمام ممـارسات خـاطئة ومنحـرفة داخـل الاعمال أو العـلاقات التي يـرتبط بهـا . إنها مـرحلة النـزاع والتنازع .

ولا يجب أن يكون هذا الفكر النقدي تعبيرا عن موقف رفض أو رمي الواقع ، بل قدرة على طرح تسـاؤلات جديـدة هو صيـاغة لأسسِها الصحيحة . . ثم اقتراح فكر جديد لـلآخرين ، أو تقـديم اطـروحات أو اجـابـات أو انسـاق تفكـير (ولمـاذا لا ؟) . في هـذه اللحظة سيصبح مثقفنا فيلسوفا .

وسيلتحق في هذه اللحظة بمرتبة المثقف / المُحَوصِل الذي يشتغل منعزلا في مرَكب أو حَصِيلة ، ولكنه يحمل فكرا حيا ، سينمو ويتغذى دائما وبدون انقطاع من اتصالاته وعلاقاته مع هذا الواقع الذي اختاره ، بكل عزيمة واصرار .

ويمكنه أيضا أن ينمي ويطوّر قدرته على المعرفة ، ويراكم المعارف ويصبح بالتالي رجل علم . حتى الآن في الحقيقة ما زال مثقفنا قاصرا عن بلوغ مرتبة مثقف حقيقي . إن هذا العلم الذي اكتسبه ، يجب أن يُمحِّصه فوق **طاوُلة اختبار الدلالة والمعنى** ، بطرح تساؤلات مثل : لماذا ومن أجل ماذا ولمن توجه هذه المعرفة ؟

هكذا اصبح العلماء الذين اخترعوا الطاقة النووية مثقفين في اللحظة التي تساءلوا فيها عن معنى وذلالة اختراعاتهم واكتشافاتهم .

وبالمثل تماما ، لا يستطيع مهندس رئيس مشروع ، أن يصبح مثقفا ، إلا إذا وصل إلى التفكير في معنى مشروعه ، بل وذهب بعيدا في تفكيره لدرجة الرفض الكلي لما يقوم به في بعض الحالات .

ويستطيع المثقف الميداني وهو الرجل صاحب الفكر المفيد والغني ، أن يطمح إلى اقتسام وتوصيل ما يملكه من معرفة وعلم مع وَإلى الناس . هنا يجد دور الكتابات ووسائل الاتصال الجماهيرية أمامه ، عندئذ سيستطيع القيام بالكتابة والحديث ، ونحن متأكدين أنه سيقول شيئا مفيدا وجديدا .

إن ما نسميه انتلجانسيا ، ما هو إلا هذا الملتقى الكبير ، اين

يتجـابه ويلتقي ويتنـافس ويتناقش المثقفـون الميدانيـون العمليـون ، الذين انتظروا انتظارا ليقولوا ويعرضوا ويقدموا اشياء ما .

بهذه الطريقة بدأت تتضح لنا طبيعة مكانة هذا المثقف الميداني في المجتمع . بصياغـة اخرى ، نقـول أن كل تفكـير طويـل وعميق وصلب ومرتبط بالحياة ، حياة الجَميع ، هو تفكير مفيد ونافع . وهنا في الحقيقة نصل إلى خـاصية اخـرى هي : أن المثقف الميداني يفكـر حول المعنى ، معنى ما يفعله ويفكر فيه .

هكـذا اذن ، يستطيـع المثقف الميداني داخـل حركـة التفكـير الهامة والمفيدة النافعـة تفادي وتجـاوز كل الامـراض التي تعاني منهـا فئات المثقفين الاخرى كالصمت والاحسـاس بالتفـاهة والـلاجدوى والهامشية . . والتحلل ، ثم الموت المجتمعي !

نعم ، إننا نقوم بتمجيد كلّي لهذا المثقف الميداني !

فهـذا الاخير ، ينمـو وينبت جيدا في منـاخاتنـا ، وهـو قـوي ومعطاء وله قدرة على اعادة انتاج نفسه بثراء .

يا مثقفي وطننا !

لنحذر من الفكر المنزوع الجذور ، المنغلق على نفسه ، الـذي لن يثمر سوى ازهـاراً اصطناعية وفواكه جافة .

لنندمج ونـطرح انفسنا بوعي داخل مجتمعنا كما هو ، ولنساهم

تـطبيقيا في تفكـير جماعي حـول مصيرنـا . فسَنجد حتـما اللغـة التي تضمن لنا الاستماع ، وإذا ربحنا هذا الرهان ، ووصلنـا إلى هذا ، سيكون نجاحنَا . . المبرر الوحيد والمجيد لوجودنا .

الجزائر ـ الأحداث ، ع . ٨٤٨
٢١ ـ ٢٧ جانفي ١٩٨٢

تجاوز الرداءة

حول انتلجانسيا أو مثقفين ؟

بقلم امزيان فرقان

استاذ بمعهد العلوم الاجتماعية جامعة عنابة

كما كنا نتوقع ، لم يمر الحوار الذي اجراه محمد بلحي مع عبد القادر جغلول في جريدة « الجزائر ـ الاحداث » بتاريخ ١٣ جانفي بدون صدى . فقد أثار الكثيرين وايقظ اهتمام الاوساط المثقفة والجامعية .

انطلاقا من هاته الملاحظة ، فكرت في تعميق النقاش الذي افتتحه جغلول ، آملا أن تجد الملاحظات التالية مكانا ما على اعمدة « الجزائر ـ الاحداث » .

اضافة إلى فائدتها النظرية الهائلة ، تعتبر آراء جغلول ثمينة لأنها تطرح أو تعيد طرح مشكل عويص هو دور ومكانة المثقفين في بلادنا .

عكس الممارسة التي ابتدأنا نتعود عليها تماما (أو اقول انتهينا من التعود عليها) يتناول ع . جغلول صراحة مشكلة علاقة المثقف بالسلطة السياسية أو بالدولة كما يقول ، كعلاقة افتراق وانفصال ، ويندد بغياب أو انعدام « انتلجانسيا نقدية داخل مجموعة اجتماعية » في جزائر اليوم .

وهذه الملاحظة الاساسية المتعلقة بغياب الأنتلجانسيا فقط ، تستحق آراء جغلول التأييد والتأمل بجدية كبيرة « وانتهز الفرصة هنا ، لأقول أن ملاحظاتي هذه تنبع من تأمل أفكار جغلول فقط ، رغم أن متابعة النقاش يجب أن تتواصل بطريقة نقدية) .

لا اعتقد أنه من الضروري ، أن اعلن هنا ، موافقتي على مجمل وجهات نظر جغلول حول الوضعية الحالية لـ « الطبقة » المثقفة الجزائرية ، كما أنني لا أرى وجوب التأكيد على تأييدي وانضمامي إلى ندائه وشعاره من اجل ظهور « المثقف النقدي » في بلادنا .

إن مصطلحات الرداءة و « تكوين الرداءة » كمصطلحات تعيّن الفقر والهزال والركود النظري والفلسفي الذي نعيش فيه حاليا ، وكذلك النقص الكبير في المصطلح النظري (لا كموقف سياسي فقط ، بل كموقع نظري وفلسفي) الذي يستطيع وحده حثّنا على التفكير وتجاوز الرداءة السائدة حاليا . . وهما المسألتان اللتان تشكلان محوري بحوثي وتفكيراتي التي امارسها منذ زمن على مستواي المتواضع ، في اعمالي ومحاضراتي الجامعية ، واللتان ناقشهما جغلول في الحوار المذكور .

حينئذ ، وبعيدا عن الاتفاق الفكري الذي احسه بين مواقفي ومواقف جغلول ، حتى وإن لم يسعفني الحظ حتى الآن لكي احاوره مباشرة ، أريد أن أقدم في هذا التدخل بعض عناصر تفكير نظرية ، تهدف إلى اثراء وتحديد وتدقيق آراء جغلول . وحتى تكون

ملاحظاتي النقدية التالية مفهومة أرى من الضروري ربطها منهجيا في محورين أساسيين هما :

١ ـ لتحديد وفهم البيئة الثقافية الجزائرية ، يرى عبد القادر جغلول أن مفاهيم « غرامشي » الخاصة بالمثقف التقليدي والمثقف العضوي غير صالحة وغير دالة وفعالة لفهم هذه البيئة الثقافية .

بداهة ، إننا إذا توقفنا عند القراءة الأولية لغرامشي كما يقترحها نهائيا جغلول ، وإذا اتفقنا مع تفسيراته ايضا للتحولات التاريخية والاجتماعية التي عرفتها الجزائر خلال المرحلة الاستعمارية ، وخلال حرب التحرير بعد ذلك ، ثم الاستقلال السياسي ، فإننا مجبرون على الاعتراف بأن جغلول محقّ في عدم صلاحية وفعالية مفاهيم غرامشي في معرفة وتحديد وضعية الثقافة والمثقفين في الجزائر . ولكننا إذا رفضنا أن نتوقف عند مستوى تلك القراءة الاولية لغرامشي ، وذهبنا بعيدا وعميقا ، فإننا نلاحظ أن التفريق الذي يقترحه جغلول بين « المثقف المقلِّد » من و« المثقف الموظف » من جهة اخرى ، موجود ضمن تفرقة غرامشي السابقة بين المثقف التقليدي والمثقف العضوي ، ولكن بمحتوى ومضمون فقير . ونظرا لأن التصورين (تصور جغلول وغرامشي) يبدوان متباعدين عن بعضهما فأني أود تعميق هذه القضية .

اعتقد أن اغلب القراء سيتفقون معي ، على أن عملية تعويض مفهوم « المثقف التقليدي » بمفهوم « المثقف المقلِّد » التي يقوم بها جغلول هي عملية تدفعنا إلى قلب مثالي وخصوصي ، بدون أن تساعدنا على تدقيق حقيقي لتفكيرنا السسيولوجي . لذا

اعتقد أنه ليس من الضروري التوقف عند هذه المسألة . ولكن ماذا عن تعويض « المثقف الموظف » لمفهوم « المثقف العضوي » كما بناه نظريا المفكر الماركسي الايطالي انطونيو غرامشي ؟

لنراجع قليلا راي غرامشي حول « المثقف العضوي » لنكتشف أن هذا المفهوم يحتوي ويتضمن ويتجاوز مفهوم « المثقف الموظف » الذي دعانا جغلول للأخذ به . يقول غرامشي بأن « كل مجموعة اجتماعية تظهر على سطح التاريخ كتعبير عن البنيات الاقتصادية تحتاج إلى شريحة من « المثقفين العضويين » . يقومون بوضع وتكوين رؤ يتها الخاصة للعالم ، وبناء وعيها الذاتي لربح الجماهير إلى بنيتها الاقتصادية الجديدة وتشكيل وتوجيه تفكيرها وايديولوجيتها تبعا لتصور هذه المجموعة الاجتماعية ورؤ يتها الخاصة .

تبعا لما يقوله غرامشي ، فإن المثقفين يكوّنون مجموعة اجتماعية تقوم بـ « سَمْنَتَة » وترصيص البناء الاجتماعي عن طريق ربطهم للبنية التحتية الاقتصادية بالبنية الفوقية المجسدة ، الثقافية والايديولوجية عموما ، لذا فإن وظيفتهم الفكرية ، تنقسم إلى وظيفتين أساسيتين :

ـ الوظيفة التقنية ـ الاقتصادية التي تتطلب من المثقفين وضع وتطبيق المعارف والتقنيات وطرق الانتاج الضرورية لنمو الممارسة الاقتصادية الخاصة بالمجموعة الاجتماعية ومشروعها الذي يؤ يده وينتمي اليه هؤلاء المثقفون .

ـ والوظيفة الثانية هي الوظيفة السياسية ـ الإيديولوجية التي

تتطلب من المثقفين القيام بوضع وانتاج واذاعة ونشر ايديولوجيا المجموعة الاجتماعية التي ولد داخلها هؤلاء المثقفون ، ووجدوا أو يجدون أنفسهم منتمين اليها .

وتهدف هذه الوظيفة اساسا إلى ضمان الاستقلالية الايديولوجية الذاتية للمجموعة الاجتماعية عن المجموعات الاجتماعية الاخرى وايديولوجياتها .

وعندما اعرض ، بطريقة تخطيطية ، نظرية غرامشي حول المثقف العضوي ، فلأنني أريد أن الاحظ التشابه الملحوظ ، والتطابق الواضح بين « المثقف الموظف » و « الوظيفة التقنية - الاقتصادية » لـ « المثقفين العضويين » التي حددها الفيلسوف الايطالي الماركسي ، من هنا أريد أن اطرح فكرة تقول أن مفهوم « المثقف العضوي » الذي يدل على الوظيفتين الاساسيتين السابقتين يتضمن ويحتوي ويتجاوز مصطلح « المثقف الموظف » . ما يبقى بعد هذا ، هو معرفة لماذا يقترح ع . جغلول موقفا مغايرا لغرامشي حول هذه المسألة .

هل يعود هذا لكون المفهوم الايجابي والنقدي يطرح مباشرة قضية الفاعل التاريخي الذي يعطي دلالته ومعناه لممارسة هذه الفئات المثقفة ؟ وهل لأنّ مصطلح « المثقف الموظف » ذي النكهة الوظيفية والمؤسساتية لا يفترض البتّة ، أي ارتباط لهذه الفئة المثقفة التي تمثل « المثقفين الموظفين » باصول ومسارات أو مراسي تاريخية واجتماعية ؟

وكذلك هل لأن مصطلح « المثقف الموظف » يعفينا من القيام بتحليل الممارسة الاجتماعية والسياسية ، هاتان الممارستان اللتان تجعلان حاليا اغلب المثقفين الجزائريين يقومون بوظيفة تقنية ـ اقتصادية ؟ ومبعدين عن الوظيفة الايديولوجية ـ السياسية ؟

تلك اسئلة اطرحها شخصيا على نفسي وعلى الآخرين .

٢ ـ يقترح ع . جغلول . . بل ويوصي وينادي بظهور المثقف النقدي أو على الاصح بظهور مجموعة اجتماعية يسميها « **الانتلجانسيا النقدية** » داخل التشكيلة الاجتماعية .

قبل قليل ، ضممت صوتي إلى صوت جغلول ، وتضامنت مع ندائه ، واتفقت معه حين يؤكد على ضرورة التفريق بين المثقف والدولة ، إذا أردنا حقيقة التوصل إلى تكوين انتلجانسيا في بلادنا .

على هذا المستوى ، وتبعا لما قلناه ، هناك مشكلة ذات أهمية نظرية كبيرة هي الشروط الاجتماعية (اقول الشروط الاجتماعية وليس الشروط السياسية) التي تسمح بظهور انتلجانسيا نقدية ، ذلك أن انفصال المثقف عن الدولة وجهازها كشرط ضروري ليس شرطا كافيا لبروز هذه الانتلجانسيا .

حول هذه المشكلة ، مشكلة الشروط الاجتماعية ، يبدو صمت جغلول مدهشا ، ذلك أنه يبدو لي عارفا وواعيا بأن الفاعل المعرفي ، يتكلم دائما من حيّز أو موقع ، هذا الموقع أو الحيّز هو الفاعل التاريخي أو الاجتماعي . اللهم إلا إذا كان جغلول يكتفي بالتبريرات المعرفية العرجاء كتبريرات الفيلسوف الفرنسي جان بول

سارتر[1] أو الالماني كارل مانهايم الذي يتحدث باسم « **المثقف غير المرتبط بأيّ قوة اجتماعية** » .

من الواضح ، أن أي خطاب تقوم بوضعه ونشره انتلجانسيا ، حتى لو كانت نقدية أو إذا كانت كذلك حقيقة هو خطاب مرتبط تاريخيا واجتماعيا باصول ومسارات وقوى ، ومتجذر في ترابها ، ويعني هذا ، أن ذلك الخطاب يحيل دائما إلى فاعل تاريخي (كيفما سميناه طبقة اجتماعية أو مجموعة أو فئة ، أو جماهير مستغلّة ومضطهَدة . .) ، يجد نفسه فيه ، ويستخدمه كتمثيل لذاته ، ويتجوهر معه كتقسيم وتوعية ومعرفة لنفسه وللآخرين .

ولكي نتكلم ببساطة وبطريقة سهلة ، ونعود للوضع الجزائري الذي يهمنا هنا بالخصوص ، هناك سؤال فرض نفسه على ذهني ، وأنا أقرأ الحوار ، بدون أن يقدم جغلول أي عنصر اجابة مقبول عليه ، وهو : هل يوجد حاليا في الجزائر فاعل تاريخي (أو فاعل اجتماعي حاضر في « **المجتمع المدني** » على حد تعبير هيغل) يتكلم باسمه ذلك الفاعل المعرفي (الذي يسميه جغلول متمنيا انتلجانسيا) ويستطيع وضع خطاب نقدي حول الممارسة الاجتماعية الموجودة ؟

على وجه الدقة ، ليس هناك أية اضاءة لهذه القضية المهمة التي ضاعت معالمها ، في كلام جغلول عن اعتبارات لا نهائية حول جو الرداءة السائد (الذي يجب أن نعترف بوجوده حقا) ، وبذلك

---

(١) ربما يشير الكاتب إلى كتاب : ج . ب سارتر ، دفاع عن المثقفين ، ترجمة ج . طرابيشي ، دار الآداب ، بيروت ١٩٧٧ . (ع . ب) .

يبدو لي جغلول رجلا يغلق على نفسه في برهنة ثنائية اشكالية تـظهر في أنه لا يحدد القاعدة الاجتماعية التي يمكن الانطلاق منها للتفـكير في ظهور انتلجانسيا نقديـة من جهة ، ومن جهـة اخرى ، يـرى أنه إذا كان هناك **انعدام لـ « مثقفين عضويين » في الجزائر** اليـوم ، فإن هذا يرجـع إلى أن « **هناك عـلاقات اجتمـاعية جـديدة بـدأت تفعل فعلهـا ، ولكنهـا لم تتكثف وتتجسـد في قـوى اجتمـاعيـة منسجمـة ومستقلة ذاتيا** » .

بصياغة اخـرى ، يمكن أن نقول حـول هذه البـرهنة الثنـائية المحـرجـة (إن لم تكن حـديثـا متنـاقضـا) : لمـاذا تلعب الشـروط والظروف الاجتماعيـة والتاريخيـة للجزائـر الحاليـة دورها في تحـديد ظهـور أو عـدم ظهـور « المثقف العضـوي » وتكف عـلى لعب هـذا الدور عندما تتعلق المسألة بخطاب حـول تشكيل ونمـو الانتلجانسيـا النقدية ؟

نعتقد أن الجواب على مسألة التحديـد الاجتماعي والتـاريخي للممارسة النظرية والفكرية ، هو جواب من ضمن الاجـوبة التي لا يمكن تقديمها في اطار هذا المقال المتواضع الذي انشـره اليوم . فهـو جـواب من ذلك النـوع من الاجوبـة التي تـتطلب تفكيـرا وتصـورا مستمـرا ومتتابعـا وذا نفس طويـل ومتنوع ، يـأخـذ بنـظر الاعتبـار التطور الحقيقي والتاريخي للمجتمع الجزائري مثلا .

ورغم هذا واعترافا وتجاوزا هٰذه الصعوبة ، أريد أن أطـرح - مختتما ومعوِّضا صمت جغلول عن هذه القضية (هذا الصمت الذي يخلع وينزع خطاب جغلول النقدي عن تبريراته المعرفية) - الافكـار

والقناعات التالية المترابطة ، رغم تَعيّنها واختلافها :

القناعة الاولى ، وهي أننا ما دمنا لم نحدد الفاعل التاريخي القادر على تمثيل وتحمل مسؤولية الرؤية المستقبلية للمجتمع الجزائري كرؤية كونية تعبر عن المصلحة العامة لمجموع المجتمع الجزائري . . فإن الحث على وضع وانتاج معرفة حقيقية للممارسة الاجتماعية في الجزائر (وبالتالي الحث على وضع خطاب فكري يلغي الرداءة السائدة) يظل أمنية صوفية ورِعة بدون أي دلالة تاريخية أو نظرية .

القناعة الثانية هي أننا ما دمنا لم نحمّل الجماهير الجزائرية مسؤوليات الفاعل التاريخي القادر على تمثيل مصالح مجموع الأمّة الجزائرية ، أي ما دمنا لم نحمِّلها مشروعها الاجتماعي كمشروع كوني ، على مستوى الأمة الجزائرية ، فإن الاعتبارات والدعاوى المنادية بضرورة وآنية وراهنية ظهور وبزوغ « **انتلجانسيا نقدية** » لا تحيل إلى أي محتوى تاريخي حقيقي واقعي . وفي غياب هذا **المحتوى** ، تبقى هذه الدعاوى سجينة في دائرة الخطاب الذي يعمل لنفسه وبنفسه بدون أية تأثيرات اجتماعية وتاريخية ملموسة .

الجزائر ـ الاحداث ، ع ٨٤٩
٢٨ جانفي / ٣ فبراير ١٩٨٢

نقاش حول مفهوم "الانتلجانسيا والمثقفين"

بقلم عليوش كربوعا كمال
استاذ بمعهد الحقوق ـ جامعة عنابة

يعتبر النقاش الذي بدأته جريدة « الجزائر ـ الاحداث » حول مفهومي الانتلجانسيا أو المثقفين هاما ومهما على اكثر من صعيد . فالمقالات التي نشرت في هذه الاسبوعية (اعداد ٨٤٦ و ٨٤٨ و ٨٤٩) اثارت عدة اسئلة هامة ، رأينا من الأفيد اضافة تساؤلات اخرى لها لتوسيع النقاش اكثر .

فعلا ، يلاحظ كل واحد منا ، أن الجزائر استطاعت فتح أبواب التكوين لكل ، أو جلِّ الشباب الجزائري عن طريق ديموقراطية التعليم ، وقد حان الوقت لطرح سؤال مشروع حول حصيلة هذا التكوين ، بعد مرور ٢٠ سنة على الاستقلال ، وما هي النتائج الملموسة لكل ما انجز في هذا الميدان ؟ حقيقة ، لقد اعطت المقالات السابقة بعض المعلومات حول هذه المسألة ، ولكن هناك مشاكل عديدة لم يتناولها المتدخلون ، ستكون محور اهتمامنا في هذا المقال .

إن وجود المثقفين ، وانعدام الانتلجانسيا هي قضية تستحق النقاش والتعميق ، من جانبنا ، لن نتناول بالحديث ، الظروف التي

تكون فيها هؤلاء المثقفون ، بل سنركز على معرفة مسألة اخرى هي الظروف التي ينشطون ويتحركون فيها ، ومن ثمّ ، سنلقي الاضواء على الاسباب التي لا تجعل هؤلاء يكوّنون انتلجانسيا . وبعد ذلك سنحاول التكلم عن معرفة كيفية تكوين هذه الانتلجانسيا .

عندما نتكلم عن المثقفين ، لا يعني هذا خلق مفهوم مجرد ، ومعزول عن وسطه وبيئته التي ولد فيها ، ويعيش داخلها ، وينشط في اجوائها . إذن المثقف هو ذلك الشخص الذي درس ووصل إلى مستوى معين من التعلم يسمح له بتفكير وتفهّم كثير من الاوضاع والمسائل المرتبطة باختصاصه . وعملية تكوين هذا المثقف ، اما أن تبدأ في الجزائر ، من بدايتها حتى نهايتها أو تبدأ هنا وتنتهي في الخارج (دراسات ما بعد التدرج) ، وهي حالات قليلة نسبيا . ويمكن للمثقف أن يحتل عدة وظائف في المجتمع ، سواء في قطاع الدولة ، ويصبح بالتالي « مثقفا موظَّفاً » أو في قطاع التدريس الجامعي ، وفي هذه الحالة ، لا ينتج شيئا ، ويمكنه أيضا أن يشتغل في مراكز الابحاث ، رغم أن المقالات السابقة لا تشير إلى هذه الامكانية .

والمشكلة المطروحة الآن ، بعد أن عرفنا وظيفة المثقف ، هي كيف ينشط هذا المثقف في مجتمعه ؟ بصياغة اخرى ، كيف يتصور هذا المجتمع ؟ وكيف يرى ويحس بنفسه وصورته داخل هذا المجتمع نفسه ؟

هذه الاسئلة ، تجرنا إلى التحدث عن مكانه ودور المثقف في بلادنا ، كعنصر أو فرد انتجه المجتمع ، لا يمكن تحليله ومعرفته إلا

داخل دواليب النشاط المجتمعي . بهذه الكيفية ، نفكر في طرح المشكل بكل ابعاده .

إن المثقف يعيش داخل مجتمع في طور النمو ، لذا فدوره هو المساهمة في التنمية ، وبهذا تتحدد مكانته تلقائيا . فوظيفته ومسؤوليته تتجلى في كونه يفهم دواليب المجتمع ، ويبحث في سبيل معرفتها ، حتى يجد علاجا للانحرافات ، ويستطيع تحسين وتطوير ما يمكن تطويره .

وهذا التعميم ، يمس المثقف مهما كانت الوظيفة أو المكانة التي يقوم بها ويحتلها في المجتمع .

الآن ، وبعد أن طرحنا تصورنا بشأن المثقف ، سنحاول معرفة ما يجري في المجتمع الجزائري . بادىء ذي بدء ، يمكننا تحديد وتعيين ثلاثة أنواع من المثقفين :

- المثقفون الذين لا يتفقون مع سير وسياسة البلاد الحالية ، ويعتبرون « انتظاريين » وبخصوصهم ، لا يمكننا قول أي شيء .

- المثقفون الانتهازيون ، الذين يتلخص همهم في البحث عن اماكن المسؤوليات للاستفادة من الامتيازات ، وتدعيم مصالحهم بدون ادنى اهتمام بتنمية البلاد ، ويعملون المستحيل للحفاظ على امتيازاتهم على حساب المصلحة العامة والمجتمع .

- أخيراً ، هناك المثقفون الشرفاء الجدّيون الذين يريدون خدمة الوطن . وحول هؤلاء سيكون حديثنا اللاحق .

والملاحظ أن النمطين الاولين من المثقفين ، لا يمكن أن

يتجاهل المرء وجودهما ، بسبب أن وجودهما مرتبط ومتعلق بتسامح الدولة أو النظام معهما في احتلال اماكن ووظائف داخل المجتمع .

بعد هذه التوضيحات ، سنتحدث الآن عن الصعوبات التي يلقاها ويصادفها المثقف الذي يريد القيام بمسؤوليته احسن قيام . يجب اذن تحليل المسألة تحليلا يشمل بعدين : البعد الاول هو العلاقة بين المثقف والدولة ، مع العلم أن طرح هذه العلاقة بهذه الصورة هو طرح مغلوط ، في نظري يجب طرح علاقة المثقف بهياكل الدولة لمعرفة المثقف داخل هذه الهياكل وخارجها . أما البعد الثاني ، فهو علاقة المثقف بالوسائل والامكانيات المادية .

ـ إن الوضعية الاولى هي وضعية « المثقف الموظف » الذي يشتغل داخل هيئة تابعة للدولة ، وهنا نجد الانواع الثلاث من المثقفين الذين ذكرناهم آنفا : أي المثقف الذي لا يتفق مع اختيارات وتصورات البلاد السياسية ، ويحتل مكانته بدون أن يلتزم أو يتبنى أي شيء ، الامر الذي يؤدي إلى نشوء بيروقراطية حقيقية .

ـ اما المثقف الانتهازي ، فهو يقوم ظاهريا بعمله ، ليلا ونهارا ، ويسمح له عمله الاداري باخفاء وجهه الحقيقي ، وبالتالي الحفاظ على الامتيازات التي يتمتع بها .

ـ أما الفئة الثالثة من المثقفين، والتي ذكر «عبد القادر جغلول» نموذجا منها هو مصطفى الأشرف، هذا الأخير الذي ساهم بحق كرجل دولة وكمثقف برأيه في توضيح واضاءة مختلف القضايا الشائكة التي تعيشها البلاد ، فعلا ، ليس هناك أي تحريم للنقد ،

إذا عالج مسائل مهمة بطريقة بناءة .

وعلى كل حال يستطيع مثقف ما ، حتى ولو كان يعمل في هياكل الدولة أن يكتب وينتج ، معبرا عن افكاره حول المسائل التي تمس المصلحة الوطنية وتهدف لتحسين الاوضاع الموجودة .

والعلاقة الثانية هي علاقة المثقف مع الوسط أو الجو الاجتماعي الذي سميناه « الوسائل المادية » وتخص هذه العلاقة هنا ، المثقف العامل في الجامعة أو مركز البحث ، فإذا كان المثقف الموظف موجودا في وضعية صعبة ، إذ أنه لا يستطيع نقد الدولة ويستطيع نقدها ، لأنه موجود داخل هياكلها . . فما هي حالة المثقف الذي تعتبر مهمته الاولى هي الانتاج ؟ ولا يعني الانتاج هنا النقد فقط ، ذلك أن عذرية الميدان في بلادنا تجعل هذا الانتاج اكتشافا ومعرفة للاوضاع والمشاكل التي لم تُعرف ابدا ، ودراستها وتحليلها اقتصاديا واجتماعيا وقانونيا ، ثم نشرها واذاعتها وتعميم معرفتها .

هنا ، ايضا ، نجد الانواع الثلاث من المثقفين السالفي الذكر . . ولكن إذا كان المثقف الشريف الجاد لا يستطيع انتاج شيء معين ، فلأنه يعاني من صعوبات كثيرة ناتجة عن كون الجامعة أو مراكز البحث ، في كثير من الحالات ، مؤسسات ادارية بالمعنى البيروقراطي للكلمة ، وليست مؤسسات ثقافية وعلمية . ومما يلفت الانتباه هو اتجاه جميع مؤسساتنا العلمية والثقافية إلى « التبقرط » على اساس استغلال المسؤولية للادعاء الشعاري القائل « يجب إظهار أن كل شيء يسير سيراً حسناً ،

وهكـذا لا يمكن للمرء أن يبحث في الاشيـاء الحسنة . وقـد تعودنـا ايضا أن نرى ونـلاحظ وجود عـدد كبير من الاسـاتذة في جـامعاتنـا بـدون انتاج ، نـظرا لعدم تـوفرهم عـلى وسائـل العمل ، وكـذلك نلاحظ نفس الظاهرة في مراكـز البحث ، ظاهـرة التفاوت بـين عدد الباحثين وكمية ونوعية الاعمال المنشورة .

حـقيـقـة ، يجب الـتـكـلم عـن المـثـقـفـين ، ولـيس عـن الانتلجـانسيا ، مـع العلم أننا لم نـدّع في يـوم من الايـام ، أن كـل المثقفين عارفين بالمشاكل ، ولكنهم لا يتحدثون عنها أو يعرضـونها . هل طرحنا هذا السؤال يوما على انفسنا ؟

إذا كـان الجـواب كـذلـك ، فـإننـا يمكن أن نقـول أن هنـاك انتلجـانسيا خفيـة ، عوض أن تتـظاهر في حيـاتنـا اليـوميـة تفضـل السكوت . إذن هناك ما يشبه الاجمـاع بين المثقفـين على عـدم طرح المشاكل التي يعانون منهـا ، نظرا لعـدم وجود تقـاليد معينـة في هذا الشأن . تبعا لهذا ، لماذا نتكلم عن هروب وهجرة الادمغة بدون أن نحدد أسباب ذلك ؟ إن المثقفين الذين يتركون البلد ، يفعلون ذلك بسبب المشـاكل التي تعـرضنا لهـا من قبـل ، لـذا يجب أن ينـظر إلى مشكل هجرة الادمغة على أنه مشكل من مشاكل الدولة ، فعلى هذه الاخيرة وحدها أن تتحمل مشاكل المثقفين لا سيما الذين يعودون من خـارج الوطن . . فكم من اطـارات عادت إلى الـوطن ثم خـرجت منه ؟

لـلاجابـة عـلى هـذا السؤال ، احيـل القـارىء إلى صحيفـة « المجـاهـد » اليـوميـة الاربعـاء ٢٠ جـانفي ، ص ٢٠ ، عمـود

« رأيكم » ، حيث قيل في مقال تحت عنوان « المستقبل للإطارات » (رغم عدم صحة هذا) :

« إن هذا الهروب أو التدفق الكبير من الاطارات الشابة سيستمر ، ما دامت الظروف لم تتغير ، لا سيما وأن هذه الطاقات الحَية من الشبيبة المكونة تعمل تحت اشراف اناس تجاوزهم الزمن ، يعيشون لا أمن وخوف مهني ، ويرون الاطارات الشابة كتهديد دائم لهم » .

أخيراً ، يبدو لي أنه من الواجب التحدث عن الظروف والشروط التي يحيا فيها المثقف والواقع الذي يحدده ويؤطره ، قبل أن نتحدث عن المثقف أو الأنتلجانسيا .

« الجزائر ـ الاحداث » ع . ٨٥٢
١١ ـ ١٧ فبراير ١٩٨٢

هل هناك انتلجانسيا في الجزائر؟

بقلم الزاوي حمزة
أستاذ بمعهد العلوم الاجتماعية جامعة وهران

عندما انتهيت من قراءة الاستجواب الذي اجري مع عبد القادر جغلول ونشر مؤخرا بصفحة « **النادي الادبي** » - **جريدة الجمهورية**[1] ، تأكد لدي السؤال المطروح دائما - والذي لا شك أن كل المثقفين الجزائريين يطرحونه - عن واقع وآفاق الثقافة والمثقفين في الجزائر ؟

والحقيقة أن طرح هذا السؤال ، هو ما يكوّن بالفعل البعد النظري لاطروحات جغلول ، أي إلى أي حد كان جغلول موفقا من خلال اطروحاته في نبش واقع وآفاق الثقافة والمثقفين في الجزائر ؟

لا ازعم ، أنني ساناقش كل ما جاء في الاستجواب ، بل ساقتصر على عدة محاور لم تطرح أو طرحت بشكل مغلوط ، وأراها

(١) تُرجم استجواب ع . جغلول حول « انتلجانسيا أم مثقفون» ونشر في جريدة الجمهورية ، يوم ١٨ جانفي ٨٢ ، و ٢٦ جانفي ١٩٨٢ ، صفحة « **النادي الادبي** » من طرق ع . بلحسن .

تمس السؤال الذي طرحناه في البداية :

١ ـ إن طرح جغلول لا يندرج في اطار شمولي ، ذلك أن مناقشة هذه الاشكالية لا يمكن أن تخرج عن ذلك الاطار الشمولي والعام ، بوضعها في شكل خصوصية تعيشها الجزائر اليوم ، لأن الجزائر ـ وهذا يعرفه الكاتب جيدا ـ لم تنتج ثقافة ولا مثقفين خارج دائرة التاريخ الثقافي العربي ـ الاسلامي ، أي خارج الاطار المعرفي لهذا التاريخ منذ قرون ، فالحديث عن أزمة تكوين « انتلجانسيا جزائرية » وبالتالي فكر ومثقفين نقديين ، هي مسألة مطروحة داخل البيئة الثقافية العربية عموما وداخل الواقع الثقافي الجزائري خصوصا وبكثير من الالحاح . . لماذا ؟

لا يعود هذا للتشويه الكولونيالي ، ولا لعدم وجود ارث وجذور في التاريخ الثقافي لأن التشويه الكولونيالي لكافة البنيات ، ومنها الثقافية ، لم يستطع منع تكوين « انتلجانسيا جزائرية » (غير متماسكة طبعا) لعدم تماسك التكوينة الاجتماعية الجزائرية المستعمَرة ، هذه الانتلجانسيا التي انارت الحركة الوطنية وحرب التحرير ، ولأن المثقفين في الجزائر اليوم يتمتعون بحضور جذور ثقافية لا يمكن فصلها ، فصلا تعسفيا عن تلك الجذور الثقافية التي عرفها العصر الوسيط كالفارابي وابن رشد وابن خلدون . . الخ . وكذلك العصر الحديث القريبة من الفكر النهضوي السلفي والليبرالي .

هكذا ، يبدو أن النظرة التي يكونها « جغلول » عن التقاليد الثقافية التاريخية ـ لعدم وجود مؤسسات علمية وثقافية بارزة مشابهة

لجامع الزيتونة والقرويين والازهر ، لا يمكنها أن تكون دليلا على عدم وجود ارث ثقافي في الجزائر ، يمكن الارتكاز عليه . إن ما انجبه المغرب الاوسط في مختلف الميادين ـ وجغلول يذكر بعض الاعلام من رجالاته المثقفين ـ لا يقل عن ما انجبته تلك المؤسسات العلمية الثقافية لأن الاندماج الثقافي ، وفي بعض الاحيان حتى السياسي ، والاتصال والتواصل ، كان في كل فترات التاريخ سواء مع الوطن العربي عموما أو المغرب العربي خصوصا ما يميز التاريخ الثقافي والسياسي للجزائر ، حتى يومنا هذا .

٢ ـ ويقودنا هذا الخطأ المنهجي في الطرح إلى عدة تشعبات ، احتواها هذا الاستجواب ، فعندما نتحدث عن الشمولية في تناول أزمة الثقافة والمثقفين في الجزائر ، لا ننفي عن هذه الاشكالية صفة الخصوصية ، بل نريد أن نحملها بعدا تاريخيا وتصورا مستقبليا واضحا وواقعيا ، الأمر الذي يقودنا كذلك إلى التساؤل عن وجود « انتلجانسيا عربية » أو بالاحرى انتلجانسيا في كل قطر من الاقطار العربية ، في مصر أو سوريا أو تونس ، ومن يمثل هذه الانتجانسيا ؟ ولصالح من تعمل هذه الفئة المثقفة ؟ وهي اسئلة ، يبدو الجواب عليها سهلا إذا ما قسنا وجود « الانتلجانسيا» بعدد الكُتّاب ودور النشر .

•

كما يبدو أن الالحاح على وجود مثل هذه الأنتلجانسيا ، ونقد هذه الظاهرة من طرف جغلول ، بدون اعلان هويتها العامة مسألة مغلوطة ، تدخل ضمن « التصور النخبوي » لأن ما هو اساسي ، يبدو لنا في نقد ما تمثله هذه الجماعات المثقفة ، سواء اسميناها

« انتلجانسيا » أو نخبة مثقفة . وهي في الواقع الجزائري « انتلجانسيا » موظفة ، مختصة في الانتاج الثقافي الرديء ، واعادة انتاجه ، استجابة إلى محركها السياسي والاجتماعي . إن وجود هؤلاء المثقفين الموظفين الرديئين راجع - تبعا لما نعتقد - إلى عدم وجود فرز اجتماعي - سياسي كامل على مستوى المجتمع الجزائري ، وكان الاحرى أن يوجه جغلول نقده إلى ما يسميه بـ « **الدولة الوطنية** » ، أي للقواعد التي تقوم عليها هذه الاخيرة ، لأن مثل هذا النقد هو مقدمة ضرورية لكل نقد . وليس معنى النقد الهدم لأن « الدولة الوطنية » الانتقالية لا تحتاج إلى هدم بل إلى ترميم ، وتحالف ، وهو عملية من فعل المثقفين الذين يقومون باعطاء وتأسيس القواعد الثقافية لها . رغم أن هذا العمل سيكون عملا حرفيا في فتراته الاولى ، وذلك عبر النقد العقلاني وهو مهمة تاريخية ، تتم من خلال قيام المثقفين الثوريين في الجزائر باعادة محورة البناء الثقافي الحاضر حول مشروع ثقافي - ايديولوجي واضح ، يجمع في تواصل ، الماضي التاريخي الثقافي ، والواقع العلمي ، وكذا البعد الحضاري المستقبلي .

ولا يتم هذا العمل من خلال عملية « الانصات والنقد » كما يتصورها جغلول فقط ، بل عن طريق الوصول إلى عملية التوجيه العلمي ، وانتاج الممارسات الثقافية النقدية التي تمثل نقد ما يسميه « أنور عبد الملك » الفكر الاصولي ، « والفكر الليبرالي » في الممارسات الثقافية الرديئة التي تسود في الجزائر، والمتمثلة أساساً في اعادة انتاج الخطاب السياسي ثقافيا ، وفي الصاق نمط من التفكير

السابق والمشوه على برامج الخطاب السياسي ثقافيا ، وفي الصاق نمط من التفكير السابق والمشوه على برامج الثقافة والتعليم والتكوين ، الأمر الذي يعتبر خطرا موجها ومتعمدا .

ما هو مطروح اليوم ، امام المثقفين الجزائريين هو واقع ثقافي واجتماعي ، لا يمكن حله بشطحات تاريخية ولا بمنهج « ثوري دوغمائي » ، فقد اثبت التاريخ ، التاريخ العربي الحديث ، أن الجدل الذي احتد منذ اواخر القرن ١٩ م في الاوساط الثقافية العربية ، لم يستطع حتى الآن بلورة فكر يمكن أن نصفه بـ « التميّز » ، بمعنى الاحاطة بالواقع التاريخي - الحضاري ، والواقع الفعلي الراهن - إن الفكر العربي وحامليه المثقفين العرب ، لم يتمكن عموما من تجاوز نطاق انتقائي على مستوى تكوين هؤلاء المثقفين الشخصي ، وتصورهم الجماعي .

إن عملية النقد ، يجب ألا تكون عملية تقف عند تفسير الظواهر فقط ، بل يجب أن تتوصل إلى بنائها ، وبهذا يتحدد دور المثقفين الجزائريين : وهو اعادة وضع تصور شمولي لواقعهم الخاص والعام ، وهي ممارسة لا تتم الا بنقد « **العائلة المقدسة** »[1] القديمة

---

(١) انظر كتاب : ك : ماركس ، ف . انجلز ، **الاسرة المقدسة أو نقد « النقد النقدي** ، مناهضة برونو باور واشياعه ، ترجمة رزق الله هيلان منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٧٥ .

« العائلة المقدسة » - يقول لينين - هي اسم مستعار مضحك للاخوين باور الفيلسوفين واتباعهما ، وكان هؤلاء السادة الافاضل ينادون بنقد يتجاوز كل واقع وكل حزب وكل سياسة ، ويرفض كل نشاط عملي ، وانما يتأمل فقط « بطريقة نقدية » في العالم المحيط والاحداث الجارية فيه ، وينظر باحتقار إلى البروليتاريا على =

والحديثة ، بطريقة جديدة وجادة وفي هذا النقد وبه ، ستكون الولادة الحقيقية للمثقفين الجزائريين .

الجمهورية ، ١٨ ـ ٢ ـ ١٩٨٢
صفحة « النادي الادبي »

أنها جماهير غير ناقدة . وقد عارض ماركس وانجلز بشدة هذا الاتجاه العابث والضار » . في : **الموسوعة الفلسفية** ، اشراف : م . روزنتال و ب . يودين ، ترجمة سيمر كرم ، دار الطليعة ـ بيروت ، ط . ٣ ، ١٩٨١ ، ص ٢٩١ (ع.ب) .

المثقفون الجزائريون والرغبة في اثبات الوجود

بقلم : بودراع بلقاسم
معيد ـ معهد الحقوق جامعة قسنطينة

لا يمكن ـ في رأينا المتواضع ـ أن يصبح النقاش حول هذه القضية « معركة حول مفهوم » ، ذلك أنه ، جرت عملية إبدال مصطلحات بشيء من النجاح : تعويض المصطلحات الغرامشوية « المثقف التقليدي والمثقف العضوي » بـ المثقف المقلّد والمثقف الموّظف . ولكن يبدو لي أن المشكلة الحقيقية قد وضعت جانبا بمهارة ، مشكلة دور ومكانة « المثقف الجزائري » في المجتمع ، أو بالاحرى المكانة والدور الذي يترك أو يسمح له بالقيام به . إن اهمية التحليل ، تتعلق اساسا في فهم أو عدم فهم تناقضات المجتمع الجزائري .

تبعا لهذا ، إنَّ القضية المطروحة ، ما هي الا مؤ شِرا لوضعية تعيشها الجماهير الجزائرية ، وتظهر وضعية « الفئة المثقفة » انعكاسا وتعبيرا عنها .

. . إننا نعرف أن هذه « الشريحة الاجتماعية » لا توجد الا بذاتها ولذاتها بدون أن « ترتبط » عضويا بشريحة اجتماعية ما ، تتعرف إلى نفسها من خلالها .

إن موقف السيد جغلول ، يبدو لنا غامضا ، عندما يصرّح قائلا : « عندما لا نجد « مثقفين عضويين » في الجزائر ، فمعنى ذلك أن علاقات جديدة دخلت حيز النشاط ، ولكنها لم تتكثف بعد في قوى اجتماعية متجانسة ومستقلة ذاتيا » . والحالة هذه ، هل بامكاننا تصور دخول علاقات اجتماعية جديدة حيز العمل دون وجود سيطرة ايديولوجية من لدن قوة اجتماعية ؟ علما أنه بدون هذه السيطرة « الاقتصادية والسياسية . . وخصوصا الايديولوجية » فإن المجتمع معرض للانفجار حتماً .

إنه لأمر بديهي اذن ، أن يكون ـ حتما ـ لهذه « القوة الاجتماعية » مثقفوها الخاصون الذين بامكانهم احتلال مرتبة « المثقفين الموظفين » ـ المصطلح المقترح من طرف جغلول نفسه ـ والوقوف في وجه عملية ظهور مثقفين « عضويين » أو « انتلجانسيا نقدية » .

السيد «أ. فرقان » يوضح لنا من جهته ، هذه القضية قائلا :

« قناعتي الأولى ، أن هذه الاعتبارات بدون جدوى ، ما دمنا لم نعيِّن الفاعل التاريخي (اي القوة الاجتماعية) وما دمنا لم نَقُم بِتَوْلِية الجماهير الجزائرية في دور الفاعل التاريخي ، فستظل هذه التحليلات عقيمة ومحصورة داخل دائرة الخطاب فقط » .

وتظهر دلالة ومغزى استعمال مفهوم « المثقف الموظف » واضحة هنا ، لأنها تسمح لنا بعدم القيام بتحليل الممارستين الاجتماعية والسياسية ، اللتين تجعلان من المثقفين الجزائريين رجالا

يحتلون « الوظيفة التقنية ـ الاقتصادية » عموما ، ومقصيّين من الوظيفة « الايديولوجية ـ السياسية » .

والظاهر ، أن المشكلة تكمن في هذه النقطة بالذات . وتبعا للتحليل النظري الا يشارك « المثقفون الجزائريون الموظفون » في الوظيفة الايديولوجية السياسية ؟ من هنا تظهر اهمية تحليل الممارسة الاجتماعية .

من الاحسن أن نبدأ بمشكلة « الفاعل التاريخي » .

هل تعتبر « الجماهير الجزائرية » الفاعل التاريخي في الوقت الحاضر ؟ وتنحصر مهمتها في تقديم « مشروعها » الاجتماعي كمشروع شمولي كوني على مستوى **الامة الجزائرية** كلها . . ؟ لا بدَّ اذن من معرفة خفايا عبارة « الجماهير الجزائرية » ، وهل هي الجماهير الكادحة المنتجة (فلاحين وعمال) أم هي الأمة بمجموع فئاتها الاجتماعية الاخرى (البورجوازية الصغيرة بورجوازية رجال الاعمال ، عمال وفلاحين) ، وفي هذه الحالة الاخيرة ، أن مصالح هذه الفئات الاجتماعية لا يمكن إلّا أنْ تكون متعارضة، الأمر الذي يفسر تنوع التيارات الايديولوجية التي تعتمل داخل المجتمع الجزائري . وحتى لو كان المشروع الاجتماعي الراهن يمنح على مستوى الخطاب الايديولوجي مكانة مرموقة للجماهير الكادحة ، فانه يبقى حسّاساً لادماج بقية الفئات الاجتماعية الاخرى ضمن هذا المشروع الاجتماعي نفسه . فالمسائل تجري وكأن المسألة الاجتماعية لم تحل بعد ، وكأنّ كل شيء يبقى ممكنا .

هكذا ، وانطلاقاً من هذه اللحظة ، يصبح المثقفون

قصب سبق » مـزدوج من طـرف السلطة : من جهــة ، ستضمن السلطة عمليـة « ادماج » المثقفـين من اجـل انـطلاق مسـار التنميـة الاقتصـادية والاجتمـاعيـة ، واستغـلالهم في الـوظيفـة الاجتمـاعيـة الخـاصـة بـاعـادة انتـاج القيم والمعـايـير التي « تُصَلِّب » السلطة .

هكذا ، الا تصبح عملية فصل المثقفين عن الجماهير الكادحة عملية معقولة ومقبولة ؟

من أجـل فهم هذا ، سنستعمـل مفهومـاً آخر لغـرامشيٍ هـو « التحويلوية » الذي طبق على وضـع بلدنا تحت اسم « التَّحْـوِّيلَوية الجزائرية »[1] يستطيع هذا المفهوم أن يضيء ويبين جزءا من نقاشنا هـذا ، وكـذلك مفـاهيم اخـرى مثل « المثقفـين الموظفـين » الـذين ينتجـون من مسار تـطبيق الاول . يعني مفهـوم « التحـويلويـة » ببسـاطة : المسـار الذي ستضعـه السلطة في حيـز العمـل من اجـل « تحويل » المثقفين إلى مذيعـين وناشـرين لايديـولوجيتهـا ، ومحقِّقِين لمشـروعية ممـارستها الاجتمـاعية والسيـاسية ، وقبـول وتبنيٍ الفئـات الاجتمـاعية مشـروعهـا الاجتمـاعي . . أي أن المثقفـين سيشكِّلون جهاز الدولة الايديولوجي .

حتى ضمن هـذه الفـرضيــة ، يمكننـا أن نقــول أن المثقفـين الجزائريين ليسوا مثقفـين موظفـين فقط ، بل هم مثقفـين عضويـين ايضـا ، ولكنهم لم ولن يستطيعوا تشكيل « انتلجانسيا نقـدية » لانهم متعلقين ومرتبطين وصادرين من السلطة وخادمين لها (ممجدين) فلا

---

(١) فضلنـا ترجمـة «Tranformisme»بكلمة « تحـويلويـة » ، وبحثنـا في كتـاب Gramsi dans le texte, E.S,paris.1977 ، فهرس المواد ، ولم نجد هذا « المفهوم » .

يمكنهم أن يكونوا « حكماً وخصماً » في نفس الوقت .

سيكون دورهم اذن هو تسيير المشروع الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية واعادة انتاجها وتقديم « رؤ ية العالم » الكامنة فيها ، كرؤ ية تملك وحدها الصحة والصلاحية .

إذ ذاك سترى الجماهير الجزائرية أن المشروع الاجتماعي مُسَيرٌ لفائدتها وليس من طرفها ، وتنحيتها من مكانة ودور الفاعل التاريخي بسبب احتلاله من طرف هذه الفئة الاجتماعية الجديدة المسيطرة سياسيا . ما هو مصير الفاعل التاريخي في هذه العملية ؟

ومن جهة ثانية ، سيكون للسلطة موقف غامض حيال المثقفين ، الذين لا يشاركون مباشرة في السلطة ، والذين لا يَصْدُرون عنها ، رغم « تبعيتهم المادية » لها . أي حيال المثقفين الذين يمكن أن يشكِّلوا « نواة » هذه « الانتلجانسيا النقدية » التي يطمح اليها الجميع .

إن هذا الموقف الغامض يتجسد خصوصا في عملية مزدوجة هي اعلاء قيمة المثقف كلاميا وخطابيا ، وانقاصِها وتَهْبِيطها ماديا واجتماعيا .

خارج هذه الاوضاع ، هناك مواضيع كالسلطة ، والتاريخ والدين تبدو محرمة ، على المثقفين النَّقديين ، هناك ما يشبه الحواجز البسيكولوجية والبنيوية التي تكبح وتمنع المثقف الجزائري من الكلام والتفكير في هذه المواضيع . وختاما ، يمكننا القول أن ظهور

« انتلجانسيا نقدية » مرهون ومتعلق اساسا بوضع حـد نهائي لبعض أنْماط العلاقات التي ربطتها السلطةُ مع المثقفين ، وظهور ديموقراطية حقيقية ومسؤولة . . التي يـظهر أنَّ هـذا النقاش الحـالي واحداً من امثلتها ومظاهرها الرائدة .

الجزائر ـ الاحداث ع . ٨٥٣
١٨ ـ ٢٤ فبراير ١٩٨٢!

من أجل بنية لـ "الانا" الوطنية

بقلم : علي عقيقة
سينمائي جزائري بفرنسا

اولا ، اقدم اعجابي وشكري لصحيفة « الجزائر ـ الاحداث » التي سمحت واتاحت الفرصة للمثقفين الجزائريين باجراء مناقشة حادة انطلاقا من الاستجواب الذي اجراه م . بلحي مع عبد القادر جغلول ، جغلول الذي التقيت معه بجامعة وهران ،حين اشرفت على تنشيط حوار ونقاش حول فيلمي « ايراز ، ربيع في الشتاء » . ومنذ تلك الفترة وأنا اتلقى باستمرار وانتظام اعمال وانتاجات تستحق التقدير من المركز الجامعي لجمع وثائق العلوم الانسانية ، الذي يشرف عليه جغلول ، والذي يستحق ويتطلب التعميم على مستوى التراب الوطني كله .

إن محتوى حوار جغلول ، وردود « أمزيان فرقان » ، قد جلبت انتباهي ، لأن هؤلاء المثقفين قد تجرأوا على مهاجمة ـ وبشكل علني ـ الرداءة والركود ، الرداءة ، هذا « السرطان » الذي يهدد مجتمعا ديناميكيا في طور التكوين هو مجتمعنا الجزائري .

حتى الآن ، كان كل من يريد التنديد الشديد بالاوضاع المزرية الحالية ، يختبىء وراء مقولة « البيروقراطية » ، هذه الكلمة

التي استنفـذت محْتواهـا نهائيا بفقـدان « نواتهـا النظريـة » من جـراء التوظيفات الكثيرة المنحرفة والمغلوطة ، حيث اصبحت هـذه الكلمة لا تعبر البتة عن تعقد الظواهر التي نطمح إلى فهمها .

إن فضـل جغلول يكمن اسـاسـا ، في كـونـه تجـاوز ظـاهـرة البيروقراطية كظاهـرة بسيطة ليغـوص ويكتشف حقلا علميـا واسعا وشـاسعـا ، يتـطلب البحث هـو حقـل « سلطة الـرداءة » أو (الميـديـوقـراطيـة) كمجمـوعـة تجهيـزات واجهـزة تمس التنـظيم الاجتماعي في حياته اليومية ، وبكل آسف ، في تصـوراته وذهنيـاته ايضا .

إن الأمر يتعلق هنا في هذا السياق ، بنفض الغبـار عن بعض المفـاهيم ، وانتـاج مفـاهيم جـديـدة ، حتى تتمكن من بنـاء عمـل ابـداعي حقيقـة ، نستـطيـع بـه أن نلعب بشكـل كـامـل دورنـا الاجتمـاعي كمثقفين ، ونـرتقي بالتـالي إلى مصاف ورتبـة الفـاعـل التاريخي ، بدون أي تمزقٍ قبالة ماض ، سـواء كان المـاضي مشرقـا ومجيدا ، أو مشبعاً بالآلام والاوجاع .

إن عمـلا من هذا النـوع ، لا يجب أن يتـوقف لأنـه يتبـع في مساره منحنى تصاعديا متواصلا ، فكل توقف هـو اعلان عن مـوت مجتمـع ما ، ويعني هـذا التأكيـد على اهميـة وظيفـة ودور المثقف من جهة ، وضرورة بروز انتلجانسيا تعكس بامانة تناقضات وطموحات مجتمعنا . انطلاقا من هذه الهموم والانشغالات ، اقدم هذه المساهمة المتواضعة في النقاش الذي فتحته « الجزائر ـ الاحداث » .

١ ـ العلاقة بين رجل السياسة والمثقف

إن هـذين القطبين يقيمان عـلاقة غـرامية نـظرا لأن الحنان والعطف يتجاوز مع الحقد والكـراهية . فَلْنُحَـاول تشريـح وتفكيك هذا الزيجة الخصوصية . إن رجل السياسة ، بما أنه السلطة ، يعتقد أنه مرغم على القيام بمهمة دينية مطلقة ، فهَوَسُه اذن هو البقاء عـلى رأس السلطة ، ومن اجل الحفاظ على تجانسية وانسجامية « المجتمع المدني » فإن الرجل السياسي ، يملك جيشا من المـوظفين ، يـطبقون حرفيا تعليمـاته وتـوجيهاتـه ، وعند ضـرورة اعادة تكييف ومـلاءمة المجتمـع المـدني مـع التحـولات التـاريخيـة التي تجتـاحـه ، يجـد « السياسي » نفسه في حـاجة مـاسة إلى « جيش » من نـوع آخر هـو جيش المثقفـين ، بمعنى منتجي ومبـدعي الخـطابـات ، أي القيم . **وتتجلى هنا المفارقة أو الطلاق بين السياسي والمثقف ، في كون هذا الاخير رجلا غير مرتبط مباشرة وبـطريقة عضـوية دائـما بالسلطة** . ومن هنا سيضطر رجـل السلطة إلى التعايش و « السبـاحة » ، جنبـا إلى جنب مع المثقف ، هذا المشاغب المحدث لـلاضطرابـات داخل المجتمع المدني ، بدون أن يتركه لحظة واحدة يغيب عن انـظاره .

تارة يستلطفه ويلاطفه عندما يخدمه ويخدم توجيهاته ، وطـورا يقاومه ويطارده عندما يكون مصدر ازعاج وخلخلة لاستمـرار ودوام صلاحياته . وهناك مـوقف ثالث يمكن أن يتخـذه رجل السيـاسة ، اسميـه « الـذكـاء السيـاسي » . يتمثـل ويتلخص هـذا المـوقف في التسـامح تجـاه المثقف النقدي الـذي يجب أن يـوجـد وينتـج . لأن وجوده يساهم في تشكيل الصورة التي يـريد السيـاسي اعطائهـا عن

نفسه وشخصيته لرعيته أو شركائه أو انداده في الخارج .

وتعتبر هذه النقطة ذات اهمية بالغة ، نظرا لأن بعض المثقفين يصبحون ملكّيين اكثر من الملك ، فيلتصقون بشكل غبي ومفضوح بخطاب السياسي ، عوض أن يستغلوا هذه الوضعية وهذه الامكانية ليقوموا بعملهم كمثقفين .

إن المثقف ـ نظرا لكونه كذلك ـ لا يحمل اية مهمة مؤسساتية ، فهو انسان يجد مشروعيته في طبيعة مكانته نفسها لأن محكمته الوحيدة هي التاريخ . إنه ينتج حتى لا يموت ، ولهذا السبب لا يخشى الموت (لأنه لا يموت) بل يخاف خوفا مرعبا ومهووسا من الغش والكذب ، ولا يقدم حساباته الا للحقيقة التي تعتبر المصدر الوحيد لصدق فلسفته وثراء مؤلفاته وجمال انتاجه .

في هذا السياق ، يذكر جغلول حالة « مصطفى الاشرف » ، وإن كانت هناك حالات مشابهة لها في ارجاء العالم الاخرى .

إن حالة « الاشرف » ذات دلالة مهمة وصادقة ، ذلك أن المثقف اصبح يقوم بوظيفتين في القرن العشرين :

وظيفة مبدع حرّ ، ووظيفة رسمية تربطه بممارسة اجتماعية معينة ، ويجب أن اقول أن الوظيفة المزدوجة هذه تغريني وتقلقني في نفس الوقت . كيف لا نكون سجناء منطق الدولة والوظيفة الرسمية ، ولا نكون ايضا ذلك المثقف الموظف التافه الذي يندد به عبد القادر جغلول ؟

إن معالم الحدود بين الممارستين ، يصعب تحديدها ، لكن

الجدية الفكرية والشرف السياسي يسمحان بمواجهة مصاعب وعوائق هذا النوع من الوضعيات والممارسات . . والسؤال ، يبقى مفتوحا على كل حال .

٢ ـ ما هي اسباب عدم وجود انتلجانسيا في الجزائر ؟

يذكر ع . جغلول ، عددا من الظواهر ، يمكن للكثيرين أن يتحققوا منها ، وذلك بالرجوع والاعتناء بماضينا وحاضرنا . وكانت هذه الاشارة مهمة ، لأنها خطوة اولى تسمح بالتخلص من العقد وقياس المجهود اللازم لخلق انتلجانسيا في الجزائر .

وتظهر الملتقيات التي نظمت حول التاريخ الجزائري مهمة ولحظة اولى على هذا النهج ، لكن ، حاليا هناك اشياء يمكن تحقيقها ايضا في اطار تسريع مسار تكوين هذه الانتلجانسيا ، وسأذكر بعضها الآن ، بدون أن ازعم الاحاطة بكل جوانب المسألة .

١ ـ يجب على المثقف أن ينطلق من العلاقة التي تطرقت اليها سابقا : السياسة/الابداع ، وعليه أن يناضل ضد نفسه بشكل ملموس ، ويحل ويتخلص من ظاهرة الرقابة الذاتية ، رغم تعقد آليات وميكانيزمات هذه الظاهرة في مجتمعنا ، لأن الخوف من الدركي يتعايش مع الخوف من الجار ، والكل يخضع لرقابة المثقف اليقظة وسلطة اخلاقه ، فكيف ـ اذن ـ لا تتهشم احلامنا أمام أولئك الذين يملكون معارف شتى ، ولكنهم لا يجسدونها في ممارساتهم الاجتماعية ؟ إن سلوكات الكثير من المثقفين وموقفهم من قضية المرأة ذات دلالة قوية وبليغة .

٢ ـ على مثقفينا الّا يعلنوا انفسهم « **نخبة الامة** » (مقولة ارستوقراطية) والا يترفعوا ويقتصدوا في روابطهم اللازمة مع الجماهير الشعبية ، فمن غير المعقول أن نطلب من الناس تقدير وتثمين العمل الذهني والفكري والاعتراف به في نفس الوقت الذي تتجاهل فيه تطلعات هؤلاء الناس وطموحاتهم ، ونلغي وننفي ارتباط العمل الابداعي والفكري بممارسات المجتمع وتأثيراته في هذه الممارسات المجتمعية نفسها .

٣ ـ إن انعدام وهشاشة وضعف قنوات الاتصال والتواصل بين المبدعين والجمهور المتلقي ، يَحَدُّ من شغف المثقفين بعملهم وحماسهم له . كثيرة هي حواجز النشر والطبع ، وكثيرة هي عقبات ومصاعب التوزيع ، فكم هي نادرة تلك المناسبات التي يستولي فيها الجمهور على عمل فكري ما ليجعل منه انتاجا اجتماعيا وملكية عامة لمجموع المجتمع ! !

واين هي تلك النوادي والاماكن التي يلتقي ويجتمع فيها المثقفون لتبادل الآراء والاطلاع على انتاجاتهم . . وحتى وإنْ وُجِدَت هذه المنتديات ، فلا يحق أن تصبح ملكية خاصة لمسؤول ما (انظر الجدال الذي وقع بين الفنانين التشكيليين في الجزائر ـ الاحداث ، ٧ جانفي ٨٢) .

٤ ـ لم يتمكن المثقف عندنا ، من تحقيق تلك السلطة المعنوية ، مثل ما هو قائم وموجود في بلدان اخرى ، الأمر الذي أدى ـ للاسف ـ إلى تحول بعض المثقفين إلى رجال أعمال ، لأن

الناس يكنون الاحترام والتقدير للجيوب اكثر مما يكنون للادمغة المملؤة.

لنعد الآن ، إلى النقطة الثانية المتعلقة بتعميم الرداءة . إن مجتمعا يقوم بقفزة نوعية وعنيفة خلال تنميته ، لا يمكن أن ينجو من المرور بمحطات مظلمة ذلك أن مسار نضجه يتم في ظروف عصيبة وأليمة ، نظرا لأن الصراع بين القديم والجديد صراع دموي وشرس .

هذا ما يطرحه ع . جغلول عموما في استجوابه ، وما يقوله ليس قابلا للرفض ، ويبقى كافيا إذا بقينا في عمومية جد مجردة .

وما يبدو لي مفيدا هنا ، هو ضرورة أن تستخرج الآليات الخفية التي يسير وفقها المجتمع العصري ، فبديهي أن هذا الأخير ليس قبيلة ، يبقى رئيس الجماعة داخلها في علاقة دائمة ومباشرة مع رعاياه ، ذلك أن السلطة في العصر الحديث تمر في قنوات متعددة ، تصعب مراقبتها ، عن طريق علاقة مُشَخَّصة .

إن الحكم والسلطة تمارس من خلال قنوات وشبكات ، لا تقبل التشويش والازعاج من اجل أن تمر المعلومات من القمة إلى القاعدة والعكس ، بين مختلف اعوان ووكلاء النظام المعين . لكن ما يلاحظ عندنا في الجزائر هو تشويش هذه القنوات التي اصبحت عرضة للاختناق ، بسبب تدخل علاقات من نمط اقطاعي ، كتلك التضامنات المتعلقة بالانتماء العائلي أو الجهوي . . الخ .

إن مثال احتكار الدولة للانتاج الثقافي ، يثير انتباهي ويدفعني إلى طرح بعض التساؤلات والاستفهامات .

يرى جغلول في هذا الاحتكار شيئا ايجابيا ، ويقترح بعض المعطيات لتحسين سير شبكات احتكار الدولة للانتاج الثقافي ، لكن ، يبقى - في نظري - كل هذا تفكيرا على المستوى التقني أو ما يشبهه ، ذلك أن الحلول المقترحة يمكن أن تُحوَّر وتُحرَّف وتُحوَّل عن اتجاهها من طرف « الرديئين » الاذكياء ، وفي ما يخصني ، أرى ضرورة الوقوف امام هؤلاء بالمرصاد ، وقطع الطريق عنهم ، حتى لا يتمكنوا من فرض هيمنتهم المطلقة بواسطة الحيلة والكذب والتهديد ، عن طريق خلق محيط اجتماعي وجو ثقافي ، إلى جانب الأليات التنظيمية والقانونية ، الأمر الذي سيسمح سواء للسياسي أو المثقف بتضييق الخناق على كل مسؤول يحاول الانزلاق إلى مواقع الرداءة . واقصد بالجو الاجتماعي ، مجموع المعايير والقيم التي يتعايش في بوتقتها ، عنصرا العقاب الاجتماعي والذوق الفكري والجمالي اللذان يدفعان الجميع إلى العمل بشرف ومهارة واتقان .

واخلص إلى القول أن المشاكل التي طرحها « امزيان فرقان » هي مشاكل يصعب التحكم فيها والاحاطة بها ، رغم أنه يجب في يوم من الايام حلها والقضاء عليها .

فعلا ، أن مقولة الانتلجانسيا مقولة زمانية ومكانية ، وهي ليست مجموعة متجانسة تحمل على عاتقها مسؤولية الهدي والارشاد ، بل هي مجموعة اجتماعية تعوم وتسبح في نفس المياه المشتركة بين كل الناس والمجتمع . من هنا ، يكون الجميع قد فهم أن الانتلجانسيا ترتبط وتتعلق ككل المجموعات بمصالحها ، وتدافع عن المواقع التي تتحدث منها ، هذه المواقع التي تكشف لكل واحد روابطه وعلاقاته مع المستغَلِّين ومستغَلِّيهم .

واختم مقالي ، معبرا عن املي في ظهور انتلجـانسيا جـزائريـة قادرة وكفئة لانهاء واتقان تشكيل بنية للهوية و « الأنا » الوطنية حتى تستطيع الـوقوف امـام السيطرة الامبـرياليـة بالتـوازي مع اهتمـامها بمعارك اخرى اطول واشرس .

إن بناء الاشتراكية يتطلب ويفترض تصورا للعـالم ، لا يلتقي ولا ينسجم ابدا مع **الرداءة والميديوقراطية** .

الجزائر ـ الاحداث ، ع ٨٥٤
٢٥ فبراير / ٣ مارس ١٩٨٣

انتلجانسيا وانتهازية

بقلم : عاشور شرفي
صحفي - الجزائر

إن كل نقاش هو ممارسة نضالية في نظري ، فلا بد له - اذن - أن يحطم ويدمر كل المحرمات ، ناقدا بوضوح كل الحقائق والمبادىء التي تقدم على اساس أنها بديهيات ، وإن لم يرض ذلك العديد من الناس ، الأمر الذي يزيد الأمر صعوبة . من هذا المنطلق ، نتكلم عن المثقفين في المجتمع الجزائري الحالي . وقبل البدء ، هناك اسئلة ضرورية يجب طرحها ، هي : من هم هؤلاء المثقفون ؟ واين نجدهم ؟ هذا جانب جدالي مهمّ من المسألة .

يرى البعض ، أن المثقفين يتواجدون بالجامعة ، ويرى آخرون أنهم موجودون في مراكز قيادة الاقتصاد والادارة . . مما ادى إلى نشأة وتفريخ عدد من التسميات . هكذا ، نجد من تكلم عن المثقفين الموظفين ، وعن المثقفين اللامنتجين ، وعن مثقفين عصريين ، وتقليديين . . بالاستناد إلى مقولات غرامشي على وجه الخصوص .

لا بد من الاعتراف بأن المهمة ليست سهلة ، وكما يقول المثل ، من السهل قول كلام جديد ، لكن من الصعب التوفيق بين

الكلام الذي قيل سابقا . من هنا تظهر الصعوبة الاولى ، التي تكمن في تعريف مصطلح « مثقف » .

وللوصول إلى نتيجة اولية ، لا بد في البداية ، من طرح السؤال التالي : من هو الذي لا ينتمي إلى المثقفين ؟ اجابة نقول : كل من ينفذ مهمات تطبيقية عملية أو يقوم باشغال يدوية ليس بمثقَف .

هنا ، يظهر سؤال معارض لا بد منه ، يطرح نفسه كالتالي : هل الشغيلة اليدويون لا يفكرون ؟ ففي اللحظة التي يفكرون فيها نستطيع أن نضعهم ضمن المثقفين ، كنتيجة لهذا المنطق ، يمكن أن نقول ، أن كل من يُدَنْدن لحنا يعتبر مطربا ، وكل من يغرس بطاطا في بستانه يصْبح فلاحا ، وكل من يعرف صنع عجّة بيض يستطيع الادعاء أنه طبَّاخ . . الشيء الذي يجعل من الطروحات السابقة اضحوكة ومسخرة .

إذن النتيجة الاولى التي نستخلصها ، هي أن المثقف شغَيل متخصص في الادراك والتصور ، وبما أن كل مفهوم وتصور هو عمل تقني للفكر الذي يملك تاريخه الخاص ، فإن مفهوم المثقف نفسه يرتبط بظهور فئة رجال الدين والفقهاء والرهبان الذين كانوا يضمنون في عصر من العصور الهيمنة الايديولوجية ، خدمة لمصالح طبقة النبلاء والاشراف ، وبالتالي يتقاسمون واياها السلطة الحقيقية ، أي السيطرة الاقطاعية على الارض والاستفادة من امتيازات الحكم والدولة المرتبطة بهذه الملكية في هذه الوضعية ، وفيها وحدها ، تكلم غرامشي عن المثقفين العضويين ، ذلك أن

القائد الشيوعي الايطالي ، لم يتطرق إلى مفهوم المثقف التقليدي إلا من اجل توضيح ـ وبحذر كبير ـ نمط الانتاج الاقطاعي ، وتحديد المثقف الحضري المديني الذي ظهر مع ظهور الرأسمالية .

ولكن ، نحن ، لن نستطيع الحديث عن المثقف الجزائري والوظيفة المنوطة به في المجتمع الجزائري ، دون أن نتعرض ونرجع إلى تاريخنا . هكذا سنوزع الثمانين سنة الاخيرة من تاريخنا إلى لحظتين ، المرحلة الاولى تنتهي ، تخطيطيا مع الاستقلال ، والثانية تمتد إلى يومنا هذا .

تبدأ اللحظة الاولى مع بداية هذا القرن ، وتتميز بموت المثقف الريفي نهائيا ، الذي كان مثقفا عضويا حقيقيا ، حيث كان يقوم بوظيفة رباعية : رجل ادب (شكل شفهي للجريدة المصورة مثلا) ، رجل سياسة ، رجل حرب ، ورجل تملك وملكية . وبمجيء الرأسمالية الكولونيالية (الفرنسية طَبعا ، ع.ب) تغيرت بنية المجتمع وانقلبت رأسا على عقب ، ذلك أن رأس المال الكولونيالي حوَّل بشراسة واعاد بناء المجتمع الجزائري ، وخلق نمطا من المثقفين ينسجمون مع المرحلة التاريخية الجديدة .

وقد تكونت هذه الانتلجانسيا الجديدة في المدارس الكولونيالية الجديدة ، التي تخرج منها المعلمون والمحامون والاطباء والاداريون الذين سيلعبون دور الوسيط بين السلطة الاستعمارية والجماهير الجزائرية العريضة .

إن هذه الفئة المثقفة الجديدة تحس بنقص كبير أمام الأوروبي

المستعمر ، ولكنها مع ذلك تشعر بامتيازاتها النسبية بالمقارنة مع الجماهير الواسعة الجزائرية ، التي يمارس عليها النظام الاستعماري سياسة التهميش والاستغلال الوحشية .

وقد عبر وترجم تاريخُ هذه الفئة تمزقَّها ، وطموحها المستحيل ورغبتها العميقة في تحقيق كيانها كقوة مستقلة . وللتحقق من هذا ، تَكفي العودة إلى صحافتها وبرامجها . فلم تستطع ابدا أن تتكون وتتشكل كحزب ، أي لم تستطع تجاوز طابع مطالبها الاقتصادي ـ النقابي ، وإن كانت فكرة ذلك مطروحة منذ ١٩١٠ ، فبقيت في مصاف الجمعيات الدينية ـ الثقافية أو التجمعات النقابية ونشير هنا خاصة ، إلى فيدرالية المنتخبين وجمعية العلماء المسلمين .

إن الحزب ، كعملية تجاوز للطابع الاقتصادي ـ النقابي ، ونظرا لأنه يقوم بالتنظيم والتوعية والتربية والقيادة ، يمكن أن يُعَدَّ ويعرَّف كعائلة مثقفة .

في الجزائر ، في هذه المرحلة الاولى ، تكون الحزب خارج البلاد ، في ظروف اكثر ديموقراطية ، ولكنه سيقوي ويحقق تأثيرات اكثف ، لبرنامجه المعادي للاستعمار بالاقتراب من الجماهير تنظيميا وسياسيا وجغرافيا . وعبر الأزمة التي عانى منها الحزب ، والتي لا نريد التكلم في اسبابها داخل هذا المقال ، ستندلع الثورة التحريرية الوطنية تحت قيادة فصيل من هذا الحزب نفسه .

ولكن يجب القول أن كل هذه التجمعات الثقافية ، التي هي الاحزاب الجزائرية ، لم تكن منسجمة كثيرا ، فعدم استقرار

اطـاراتها وحـراكهم وندرتهم خصـوصا في القـاعـدة سيطبـع ويميز الحركة الفكرية في هذه المرحلة . كـان الاستعمار يملك جـل اجهزة وضع وانتاج ونشر المعرفة ، إذ لم يبق لحركة المثقفين الجزائريين سوى النوادي والخلايا والصحافة . وكان كـل خطاب هـذه الانتلجانسيـا الثقـافي ـ السياسي يـدعـو في الغـالب إلى مـا يجب أن تكـون عليـه الوضعية الاقتصادية بدون اخذ الـواقع الاقتصـادي العياني ، الأمـر الـذي ادى إلى كثير من الانحـرافات والتشـوشـات والتشـويهـات ، سماها البعض بـ « الشعبوية » :

أما في المرحلة الثانية ، التي نعيشها منذ عشـرين سنة ، فـإننا نـلاحظ تداخـل جيلين من المثقفين ، الجيـل الأول هو جيـل الثورة والحـرب التحريـرية . وهـو جيل يستحـوذ ويمسك بسلطة الـدولة ، ويتحكم كذلـك في الاجهـزة الاقتصـاديـة (الشـركـات الـوطنيـة والدواوين) واجهزة انتاج ونشر المعرفة (ومنها وسائل الاعلام) امـا الجيل الثاني فهو الجيل الذي تخرج من المدرسة الجزائريـة المستقلة ، التي تـزايدت اعـدادها ، نـظرا لاحتياجـات موديـل التنميـة الـذي اختارته البلاد ، وهو جيل مـوجـه نحو مهام تقنية أساساً .

ويمكننا أن نقول في هذا السياق ، أنَّ سياسة « المركبات » التي تتطلب تكنولوجيا عالية ودقيقة جدا ، وبالتالي اطارات ذات تدريب وكفـاءة عاليـة ، اضـافـة إلى الـظروف الخـاصـة التي تم فيهـا نقـل التكنولوجيـا أدت إلى افلات التصـور من زمام ايـدي اولئك الـذين يتحملون تنفيذ هذا النقل ، فأصبحـوا عمليا اشخـاصا يؤدون دورا صغيـرا يتلخص في القيام بـالرقـابة السيـاسية ليس الاّ ، لأن مـركز

اتخاذ القرارات موجود في الخارج . بداهـة وبما أن « المـركب » ليس عمليـة اقتصاديـة بحته لأنـه ممارسـة ثقافيـة ايضا ، ـ ولا جـدال في هذا ـ . . فإن المثقف سيعيش وضعيته بطريقة متناقضة ، ذلك لأنـه يريد ويطمح إلى تطبيق افكاره النظرية التي تكـوّن بفضلها ، وعندما لا يستطيع القيام بذلك ، يضطر للقيام باعمال ومهام تبريرية عملية وثـانويـة ، مما يؤدي بـه إلى وضعية من السلبيـة الاخلاقيـة المعنويـة والسياسية .

ومن البديهي ، أن النقاش يمكن أن يمتد ، إذا فَكَّكْنا مفـاهيم مثل المثقف النقدي و « الدور التاريخي » المزعوم الخاص بالجماهير ، و « الاندماج » و « الديمقراطية الحقيقية المسؤولة « الخ . . وكـذلك العديد من المفاهيم الاخرى التي تغطي وقائـع مختلفة عن التي تعلن عنها قبليا ، لذا سنكتفي الآن بالقـول أنه لكي نفهم حقيقـة مسألـة المثقفين الجزائريين ، يجب أن نضـع تصنيفا أو نمـطية لمختلف فئـات المثقفين الحاليين ، لأن هذه النمطية ضـرورية بـالنظر إلى استقـلالية الانتلجانسيا ، أو تبعيتها للفئة الاجتماعية التي تملك حقيقـة السلطة الاقتصادية ، أو امكانية تحالفها الممكن مع ما يسميه غرامشي (دائما هـو !) الطبقـات الاداتية . وعنـدما نجيب عـلى هذا السؤال فـإن المشكل يبدو محلولا تقريبا ، ومن اجل تجاوز هـذا ، يبدو لي ، حتى وإن كـررنـا انفسنـا ، انـه يجب أن نعـرف مـا المقصـود بكلمـة مثقف . عموما ، عندما نتكلم عن « الأنْتِلَكْتُوَالْ » ، و « المثقف » و « القارىء » و « المتعلّم » و « العالِم » في اللغة العربية ، فإننـا نقصد سيّـدا . وعندمـا نتكلم باللهجـة الدارجـة عن المثقف فـإننـا نقـول

« شخصية » أو « مقلاه » (شخصية معتبرة سامية) ، ويعني هذا شخصية سياسية أو طبيب أو محامي أو مهندس أو مجرد مدير مدرسة أو إمام أو معلم أو حتى عَوَن اداري .

ومن المهم ملاحظة « التغييرات » التي تطرأ على تقييم فلاح أو عامل لهؤلاء « السادة » ، فهذه التقييمات تتغير بمجرد أن تفقد فئة من فئاتهم « نفوذها وتأثيرها » ، الأمر الذي يختزل المسافة بين الفلاح والعامل وبين الطبقات الاداتية هذه ، التي تظهر منها فئات اخرى جديدة أو « تقليدية » . بناء على هذا ، نرى أن المثقف ليس الشخص الذي « يفكر » فقط ، بل هو تلك العلاقة الاجتماعية والسياسية بين الطبقة الاداة وسلطة الدولة . فتلك « الشخصية » موجودة كذلك لكونها ، ولانها تقيم علاقات ممتازة مع « فلان » أو « سي فلتان » مأموري الدولة على المستوى السامي أو السفلي .

وعندما ، يصبح المثقف انساناً غير ذي قيمة ، ويفقد هذه الوساطة الفاعلة النشيطة تتدهور وضعيته المادية ، ويعود إلى قواعده في الطبقة الاداة الوسيطة ، فتتقلص المسافة التي كانت تفصله عنها . إن هذا ما نلاحظه اليوم في المجتمع الجزائري .

وهو مظهر من الازمة التي تعيشها مجموعة كبيرة من المثقفين ، (اقول مجموعة كبيرة ، وليس الكل ، لأن هناك دائما مثقفون ذوو امتيازات تحتاجهم الفئة الاجتماعية المسيطرة من اجل حيويتها واستمراريتها) تحيا متأرجحة ، قلقة أدت بالبعض إلى القول أن موقف السلطة تجاه المثقفين « غامض » . وإذا كان هناك من

« غموض » في هذه الوضعية ، فانه يكمن في تلك الانتهازية الكلامية والمصلحية الملموسة . . وبديهيا أن انتهازية كهذه هي انتهازية مثقفين يدورون في فراغ ، منتظرين ـ بطريقة قدرية ـ ظهور « ديموقراطية حقيقية » غير احادية ومتعددة اعتقد أنها يجب أن تُخْلَق ، لأنها نتيجة وليست شرطاً مسبَّقا أو معطَى قبْليا .

الجزائر ـ الاحداث ، ع ٨٥٦
١١ ـ ١٧ مارس ١٩٨٢

أجواء الوقت الايديولوجية

بقلم : سعيد دحماني
مؤرخ

أود أن اشكر في البداية « الجزائر ـ الاحداث » التي اخذت زمام المبادرة لفتح النقاش على اعمدتها ، حول موضوع « الانتلجانسيا والمثقفين في الجزائر » ، الذي بادر به السيد جغلول ، وكذلك مجمل المتدخلين فيما بعد .

عموما ، طفا على السطح اتجاه تنظيري ، ينطلق من مفاهيم ذات ابعاد كونية ، ولكنه عاجز عن التنقيب في اعماق العالم الثقافي الجزائري . ولهذا ساحاول من خلال هذه المساهمة المتواضعة أن اتلمس واتناول بعض المظاهر التاريخية . . .

إذا كان السيد « عاشور شرفي » يرجع في مقالته « مثقفون وانتهازية » إلى السنوات الثمانين الماضية من تاريخنا ، فانا اعود القهقرى ، من جهتي ، إلى الخمس والعشرين قرنا من تاريخنا ، لكي اربط هذه العودة بمشكلة اساسية هي اللغة والكتابة والثقافة . فعلا أن مشكلة تاريخ الجزائر هي مشكلة الكتابة . في العهود البربرية (النوميدية) القديمة ، لم تكن للجزائر ، كتابة خاصة

عموما ، اعني كتابة تُدَوَّن وتُسَجَّل فيها كل نشاطات المجتمع (نصوص دينية ، أدب مكتوب ، نصوص تشريعية ، وثائق دبلوماسية . . الخ) .

حقيقة ، كانت الكتابة ، كحروف وابجديات ، قد وُجدت ـ ولكن لم يصل الينا منها الا بعض الخطوط الجنائزية ، وما تبقى كله كان شفهيا ، الشيء الذي انتج لنا تاريخا مظلما ، غير كامل ، لم يصل الينا عن طريق مجتمعنا القديم أو وصلنا ، بالصدفة ، كتاريخ مكتوب من طرف الأخرين . إن هذه الظاهرة هي احدى الثوابت أو ربما لعنة ما ستدوم عشرين قرنا تقريبا .

بالفعل ، لقد استعملنا ـ سواء تحت ضغط الاحداث أو بارادتنا ـ كتابات اخرى افرزت اشكالا أدبية أو أخرى ، محددة باشكال ومضامين بيئات لغوية ـ ثقافية مختلفة ومتنوعة . هكذا سيعرف ويستعمل « المتعلِّمون » في الجزائر الكتابات **الفينيقية واللاتينية واليونانية** ، **البيزنطية والعربية والفرنسية** على امتداد خمس وعشرين قرنا من الزمن . كل هذه الكتابات ستخلق ازدواجية متجدِّدة بشكل مستمر ودائم ، الظاهرة التي تعتبر فريدة من نوعها في تاريخ الانسانية . إن عدم ثبات الكتابة هذا ، في مجتمعنا ، منذ القدم ، يجب أن يكون مفهوما من طرف كل مثقف جزائري وليد وناشيء . لهذا فإن الفكر الموجود في هذه الكتابات عادة ما ينطلق وينطرح في اطار أو سياق الاجواء والطقوس والاهتمامات الايديولوجية السائدة في ذلك الوقت أو الزمن . سينهل « القديس اوغسطين » من الكونية المسيحية ، وشكلها الزهدي والنسكي ، اما

المتعلمـون الـرومـان القـدامى فسيهتمـون بـالانتحـال والبـلاغـة والنحـو . . ومع دخـول الاسـلام ، سـار الفقهـاء في نفس الاتجـاه واهتموا بالكونية الاسـلامية ، فكتـاباتهم لم تكن سـوى مجرد تـراكم سطحي للنصوص الاصولية والاصلية أو كتابات مُنْتَحَلة ومنسوخة . إن المثقف الـوحيـد الـذي انجبـه المغـرب الاسـلامي هـو « ابن خلدُون » ، رغم أنه لا يملك أي تأثير .

في المـرحلة الاستعمـاريـة ، اتجـه « المتعلِّمـون » التقليـديـون وساروا في طريق الانتحال والاستنساخ ، تغذيهم نزعـة رجوعيـة إلى الكونية الاسلامية ، أمـا بالنسبـة لكتابـات المتعلمين المفرنسـين فقد عكست ـ سـواء في مـطالبهم السيـاسيـة أو اعمـالهم الادبيـة المثـل الرومانطيقية ـ الجذرية .

اذن المسألة المطروحة هي : هل أدى تبدُّل الكتابة وعدم ثبات التعبير هذا إلى تكـون وتشكيل مثقفـين وانتلجانسيـا يمكن الانتساب اليهـا ؟ هنا يتـدَخل بعـد **التاريـخ** في عمليـة تكـوين الانتلجـانسيـا الجزائرية .

فبعـد عشرين عـاما من الاستقـلال ، برز عـالم « المتعلمين » الجزائريين على شكل ازدواجية مضاعفة : كتـابة معـربة ومفـرنسة ، يمكن أن نسميهـا ازدواجية افقيـة وازدواجيـة اسـاسيـة (لغـة تعليم وتعلم ـ لغة أم) يمكن أن نطلق عليها اسم ازدواجية عمودية ، وقد نتج عن هذه الظاهرة تشتت وانفجـار ـ ارادي أو غير ارادي ـ لعـالم «المتعلمين» الجزائريين وتشظّيه إلى فرديات **منعـزلة ومعـزولة**، تقـوم كـل واحدة منهـا بمهمتها الفـردية وتستغـل تقنيتها أو تنجـز محاولات

تنظيرية فارغة وعقيمة ، دون أن تحدث أي تـأثير حقيقي ، في تـطور المجتمـع على المستـوى التاريخي ، أو تعبـر عن طموحـاته . واضـح بالمناسبة أن جزءا هاما من المتعلمين باللغة العربية لا يشارك في هـذا النقاش :

اكيد ، أنَّ هناك طائفة « ارباب المقلاة » كما يقال ، أو بتعبـير آخر : التقنوقراطيون ، وهناك طوائف اخـرى كالشعـراء والروائيـين والمؤرخـين . . الخ . كـل هؤلاء المتعلمين يتـدخلون ويؤثـرون في مستقبل المجتمع كـ « سـادة » و « شخصيات » و « أدباء» ، وليس كـ « **انتلجانسيا** » .

لذا ، يمكن القول أن هنـاك مثقفين في الجـزائر عـلى الاقل ، وليس هناك بعد انتلجانسيا .

تبعا لهذا ، فإن احدى شـروط ظهور انتلجـانسيا جـزائريـة ، هي تملك هذا الماضي التاريخي الطويل باكتساب وعي جماعي بـه ، يستطيع ـ رغم تعدد وتغير الكتـابات ـ تعيـين وتحديـد تلك الوحـدة الثابتة ، التي هي « **الأنا الوطنية** » وتطورها منذ الممـالك النـوميديـة حتى يومنا هذا . إن هذه الخـاصية الثـابتة هي المهـد الذي يجب أن ينمو فيه التطور الثقافي للأجيال الحـالية والمستقبليـة لأن كل المـظاهر الخارجية ، تدفعنا إلى التفكير في أن كثير من متعلمي ما قبل وما بعد الاستقلال ، يهملون ويتجاهلون عملية تملك الوعي بهـذا الماضي ، أو يقومون بتخطيطه وتجزئته بطريقة فجّة وواعية بعض المرات .

لقد ادخلت ـ فيما سبق من كلام ـ اللغة العربية ضمن مختلف الكتابات « المستعارة » في الجزائر خلال القرون العشرين الماضية ، ولكن ابتداء من ابن خلدون على الاقل ، اصبحت العربية لغتنا . . ابن خلدون هذا المفكر الالمعي اللامع الذي عبَّر ووصف وحلل مجتمعنا الذي يظهر مسلما عموما ومغربيا اساسا . . هو الرجل الوحيد الذي يمكن أن نطلق عليه اسم مثقف . بكل معنى الكلمة .

لذا فإن مستقبلنا الثقافي مرهون ومرتبط باعادة الاعتبار لهذه اللغة عموما ونحتها وتشكيلها لكي تصبح حقيقة لغة وكتابة وطنية ، متخمة بالماضي ومعبَّأةً بالمستقبل ، وهنا يكمن مستقبل ثقافتنا . إن متعلمي اليوم ـ مهما كانت الكتابة التي استعاروها ـ يتحملون مسؤولية ذلك.

هكذا ، إذن ، أرى أنَّ المسألة ليست مسألة بحث نظري يجهد نفسه للتفتيش عن تطابق ما بين المفاهيم المستعارة من مدارس متنوعة و « الموديلات والنماذج الجزائرية » ، وليست ايضا في المكانة التي يحتلها « المتعلِّم » في الحياة السياسية أو التي يطمح إلى احتلالها .

كنتاج وضعية تاريخية ، وكفرد معزول ومشتت ، لم يستطع « المتعلّم » الجزائري أن يتحمل مع رفاقه جماعيا ، مسؤولية هَذا التاريخ ، وما دام لم يتحمل هذا الواجب ، فأنني لا استطيع الزعم أو الادِّعاء بأن في مقدوره تكوين انتلجانسيا . ومعنى هذا أن هناك

مسؤولية هي : يجب أن يقوم اعضاء مختلف طوائف « المتعلمين » بتَحَمُّل وتَفَهُّم تاريخية الثقافة والمجتمع الجزائري ، لكي يتمكنوا من ارساء أسس انتلجانسيا جزائرية لفائدتهم وفائدة الاجيال الآتية . هكذا وبهذه الطريقة ستفرض النماذج أو الموديلات نفسها ، ويصبح دورها « كوسيط نشيط » فاعلا في الاحداث والواقع .

الجزائر ـ الاحداث ، ع ٨٥٩
١ ـ ٧ افريل ١٩٨٢

حول المثقف الجزائري

بقلم : بن مالك انور

عندما نستعيد تحليلا معروفا ، مما وجرى في الستينات ، فإننا لا نهدف إلى التكلم عن المثقف الجزائري كعنصر من عناصر تحليل سسيولوجي يستخدم مصطلحات التراتب الطبقي وعلاقات الانتاج . ورغم ضرورة القيام بهذا التحليل فإن عملية انجازه لم تتحقق الا قليلا . عموما لن يكون هذا الموضوع صلب حديثنا في هذا المقال . سأهْتَم خصوصا بالمظهر « الاخلاقي » البحت ، المتعلق بوضعية المثقف في بلد كبلدنا . وسافرّق بين الشّغيل المثقف والمثقف ثم بين المثقف « الحقيقي » و « المزيَّف » .

إن الصعوبة التي يجب تفاديها في مقال من هذا النوع هي استعمال « لغة متخشّبة » . ماذا يعني هذا ؟ إننا نطلق اسم « لغة متخشبة » على كل خطاب ، لا يتناسب ولا يتعلق تنظيمه الداخلي مع امتحان وتحليل حقيقي للواقع ، ويخضع للتوتّر المدمِّر والوحيد للمنطق والظواهر ولا يكون في نهاية الأمر الا عبارة عن « ردود فعل » متتابعة ، ألْسُنية بافلوفية خاصة بمرجع ومصدر ما . اللغة المتخشِّبة هي شعائر بمعنى ما ، بحيث أننا إذا نطقنا أو كتبنا كلمة

ما ، فإننا سنعرف ما هي الكلمة التالية[1] .

هناك ما يشبه « إتفاقاً » ضمنيا بين قائل الخطاب وموضوع خطبته أو قوله ، (اعتذر عن هذه الاصطلاحية الجديدة) حول قوانين اللعبة . إننا نلحظ مسافة هامة (والاخطر أنها مقبولة) بين مواقف بعض الناس ، الخاصة بحياتهم الشخصية والداخلية ، ومواقفهم (المعبرة عنهم) في وضعيات « رسمية » ، أي بين المواقف الخاصة والمواقف الرسمية ، هذه الاخيرة التي يَتَبَنَّى ويستعمل خلالها هؤلاء الناس الايقاع والكلمات والحركات اللازمة لمثل هذه الحالات ، أي كل ما هو متفق عليه اجتماعيا في مثل هذه الوضعيات . إن الشخص الذي يستعمل عربية « دالَّة » في الشارع أو في البيت ، يبدأ في وضعية من هذا النوع بانتاج عربية غريبة ، مكونة ظاهريا من نفس كلمات العربية « العادية » ولكنها فارغة من المعنى ، وذات صدى أجوف ، يبدو مرتجلا وملفوفا في اجواء ميتة ، تتقاطع فيها الموافقات والتصديقات والتأييدات المشوشة لتعابير سحرية عديدة كـ « الثورة » و « الواجب » . . الخ . إن هذه اللغة الميتة / الهيكل العظمي الناطق . . هي تلك اللغة الذائعة الشائعة التي نسميها « اللغة المتخشبة » .

لنرجع الآن إلى تعريفنا الخاص بالمثقف . ولنقم بأمر سهل ، ونتناول القاموس لنرى ماذا يقترح علينا :

---

(١) مثلا ، عندما نقول « وإن دل هذا على شيء » فإننا نعرف الكلمة أو الجملة التالية واللاحقة أي « . . فإنما يدل » (ع.ب) .

المثقف هو الشخص الذي تشمل وتحتوي مهنته على نشاط فكري أساسا .

بداهة أن هذا التعريف يحدد المفهوم الذي نريد معرفته ، تحديدا يشتمل على عناصر تشويش وتضبيب مقيتة من الناحية الدلالية . فتبعا للقاموس يتضمن هذا المصطلح ، المهندس الميكانيكي والاستاذ الكيمائي ، والطبيب والمسؤول عن المركز الثقافي ، ورجل الادب واشخاص آخرين ايضا ، لأن المهن التي لا تحتوي على « نشاط فكري » اصبحت قليلة في عصرنا ، ويعني هذا أننا يمكن أن نكبر وأن نمد قائمة الاشخاص الذين يوجدون في بوتقة هذا المصطلح .

من جهة ، أخصُّ بهذا التعريف القاموسي « الشُّغِّيل المثقف » ، وارَى أنه لكي يكون المرء « مثقفا » لا يكفي أن يكون « شغِّيلا مثقفا » وكما يقول علماء الرياضيات ببرودة وجفاف يعتبر هذا شرطا ضروريا ولكنه غير كاف .

لنشرح هذا . إن الشغِّيل المثقف (الذي يخلط الناس بينه وبين المثقف والذي يعتبر في الحقيقة غير مشابه له) هو من « يَرْبَحُ خبزته » عن طريق القيام بوظيفة تتطلب منه استعمال قوي لـ « معرفة » اكتسبها بعد سنين طويلة من الدراسة والتحصيل .

يمكن أن تكون هذه المعرفة مثلا . . قدرةً حصل عليها المرء ، في الجامعة ، لتوصيل وتدريس معارف كيمائية لطلبة أو تلاميذ معينين ، أو كفاءة خاصة بتركيب آلات وأدوات معقدة . إن الشغِّيل المثقف ـ رغم الفكرة السَّامية التي يملكها عن نفسه ـ والذي

يحصل على أجرته من فائض القيمة الناتج من عمل العمال (والريع البترولي كذلك كما في حالة الجزائر) هو في الحقيقة ترسا أو برغيا في الترسانة أو الآلة الاجتماعية التي يعمل فيها ، من أجل أهداف يجهل مراميها أو مفروضة عليه فهو يكتفي باعادة انتاج التراتب الاجتماعي على مستواه ، ويتعرض هو الآخر لاستيلاب العمل المُجزَّى ، مساهما في ديمومته وتكريسه ؛ إن هذا الاستيلاب يجري عموما لفائدة ما نسميه تجاوزا « الظروف الموضوعية » .

المثقف ـ اذن ـ هو ذلك الشغِّيل المثقف الذي تَمَلَّكَ وعيا بوضعيته كاداة ، تساهم في تَصْلِيب وتحجير وتبرير الهرمية الاجتماعية السائدة ، وَرَفَضَ الدخول في اللعبة ، وحاول تَفَهّم وفَهْم وضعيته ، بحصوله على حق النظر في ظاهر وباطن القرارات الاجتماعية ـ السياسية ـ الاقتصادية . حينئذ لا يمكن أن تكون عملية تجاوز استيلابه ، أي عمَلية استعادته لوجوده كله ، إلا عملية تجاوز ونزع استيلاب كل الخاضعين له موضوعيا على مستوى المجتمع كله . . وهذا عن طريق اظهار هذا الاستيلاب وآلياته ووسائل تجاوزه .

بصياغة اخرى أن المثقف هو « من يهتم ويحشر أنفه في ما لا يعنيه » والذي يَعْرِف أن بسلوكه هذا فقط ، سيصل إلى الاهتمام بما يعنيه حقيقة : أن يكون « انسانا صلبا وعنيدا ومُصِّرا ومثابرا على القيام بحرفته كانسان » (على حسب قول جميل لاحد الفلاسفة) .

إن « الظروف الموضوعية » تقول للمعلم مثلا : « انت معلِّم ، يدل هذا القول في نفس الوقت على : لستَ سوى

معلماً ، فلمـاذا تهتم بهـذه القضيــة أو تلك وهي من اختصـاصنـا وحـدنا ، نحن» ؟ . إن الشغيـل المثقف في هـذه الحالـة سيكتفي بـ « البقاء في مكانه » ، اما المثقف ـ بما أنه تجاوز مكانته كشغيل مثقف (وانطلاقا من هذه المكانة نفسها) فإنه سيحس بكونه مَعْنِيا بالحالة في الشرق الاوسط أو مهتما بعملية تسيير سيء لشركة وطنية ما ، ولن يكتفي حتى يُعْلِن اهتمامه وانشغاله بهذا ، لأن هذا الأمر هو حجر الزاوية في نشاطاته كمثقف .

هذا الاقتراب النقدي من الواقـع ، وهذه الشجـاعة ، وهـذا التـدخـل في « همـوم ومشـاغـل الآخـرين » ؛ هـو مَـا ينقصنـا نحن « المثقفـون » الجـزائـريـون (وللقـوسـين هنـا دلالـة التحفظ) . إن المشكـل ما يـزال معقـدا ، لأنـه ، ولا واحـد قـد سَمَّى وأشَـار إلى المثقف « المزيف » . يعتبر « مزيَّفاً » كل مثقف وَعَى وفَهِم استيلابَـه (وبالتالي استيلاب الأخرين) واستمر في تكريسه وهو يعلم ويعرف اسبابه ، لأنه يضْمِن ويحافظ عن طريق ذلك ، على امتيازات أو على ريع وضعيات ، أو منافع وفوائد عسلية ثرة .

في هذا المنظور ، تظهر اللغة المتخشِّبة كسـلاح حاد ، وفَعَّـال بيد المثقف « المزيف » ، ذلك أنه يستعملها على شكل مفاهيم كثيرة تفيد أن المجتمع في تحوّل وتغيّر ، من أجـل نشر اعتقـادٍ مَفَادُه ، أن المجتمع المنشود مـوجود ، وأنّ تحـريض المثقف الحقيقي على بلوغـه أمر مشكوك فيه ومثير للسخرية .

ويمكن أن يتحــول المثقف « الحقيـقـي » إلَى مثـقف مـزيـف ويسلخ جلدتـه الاولى ، (ويسكت أو يصمت في بعض المـرات) .

إن هذا التوتر الذي يسكنه دائما وفي كل الحالات ، يجد مشاقا كثيرة في تحمله بسبب الخوف من الاحزان والضجر ، فيحاول ايجاد اسباب وتدبير حجج حتى يجدها ، ما دام أن النية السيئة وهذه القدرة والكفاءة على احتقار النفس لدرجة الكذب عليها، لا تنتظر سوى اصغر وَهَنٍ أوْ خَورٍ لتظهر إلى العيان واضحة بائنة .

سيرد البعض قائلين أن هناك نقْص الوسائل ، وضغط « الظروف الموضوعية » وثقل الاجهزة . . هذا صحيح ـ للاسف ـ ولكن ارادة الاكثار من تفسيرات الفراغ الثقافي السائد بعامل « الظروف الموضوعية » الوحيد يؤدي إلى تضبيب وتمويه القضية الرئيسية وهي أن المثقف ـ ونظرا لكونه كذلك ـ ليس لوجوده أي معنى الا بالعلاقة مع وضعية تطرحُ وتعيش مشاكلَ ما .

إذا كانت « الظروف الموضوعية » غير موجودة ، فإن المثقف غير موجود ايضا ، لأن قوته وصَلابته تأتي اساسا من عملية التَعرية الصعبة لهذه الظروف الموضوعية نفسها والكشف عنها : التي يقوم بها هذا المثقف بالذات .

إن كل وضعية تخلق الحرية ، إذا أصررنا على توسيع الحدود والابعاد التي تحصرنا فيها الظروف الموضوعية، وفي هذا الشأن يقول مثل شعبي حكيم أنَّنا لسنا مسؤولين عن ظرفية معينة ، بل عن الكيفية التي نتعامل بها مع هذه الظرفية ، وعلى هذا فقط ، سيحكم علينا الناس .

ولسوء الحظ ، يبدو لي أن المثقف في الجزائر ، ينتظر أن

يعطى له حق الوجود . فَبِتكاسُل وخُمول ، يجهل أن لا شيء يعطى . إن المثقف الجزائري المُعَانَ أبداً ، ينسى أنه لكي « يكون » لا بـد له أن « يفعل » . وربما يكون هذا الأمر من البديهيات ، ولكنه بـديهية يجب أن تقـال ، لأن واقع حـال المثقفـين الجـزائـريـين يبـرهن عـلى ضرورة هذه البديهية وتأكيدها .

الجزائر ـ الاحداث ، ع ٩١٠
٢٤ ـ ٣٠ مارس ١٩٨٣

التأريخ الجزائري: من القرن التاسع عشر إلى النصف الأول من القرن العشرين
من الخبر إلى التأريخ

هواري تواتي

١ ـ عصر الرواة:

حتى نهاية القرن التاسع عشر، ظلت الأصول المنطقية التي بني عليها علم التاريخ عندنا، هي نفسها التي بنى عليها المؤرخون العرب ـ المسلمون نتاجهم الفكري في العصر الكلاسيكي القديم، فالتاريخ هو اذن وقبل كل شيء عرض للزمن الديني، وهذا التاريخ الذي يخضع لقدرة الهية مطلقة، نجد تفسيره في الاشارات (الآيات) التي شاء الله أن يظهر فيها قدرته: فخسارة عسكرية هي دليل على الغضب الالهي، واما الانتصار فهو دليل على العناية الالهية.

كذلك فإن مؤلف «**ديوان المتايل**» لم ير في فتح الجزائر وهزيمة الاتراك عام **١٨٣٠** إلّا آية من هذه الآيات التي يعاقب بها الله (الكلي القدرة) الظالمين .

لأن أية مقولة ذهنية كالكارثة مثلاً هي اساسية في منطق ما قبل العصر الحديث (العصر الوسيط).

ففي مؤلفه (**أنيس الغريب والمسافر**) يرى «مسلم بن

عبد القادر» «ان تلك دلالة من الله تعالى[١] (آيات من الله تعالى) كلما اراد أن يظهر استنكاره وسخطه على الاستبداد، والجور، والإنحرافات الأخلاقية أو الدينية وغيرها من المنكرات».

إنها الارادة النافذة التي تجسد قدرة الله العليا في توجيه احداث الحياة الدنيا ، وإن مقولة العقاب الإلهي لتجد تعليلاتها المثالية في مثل تلك الكوارث الدالة (ذات الدلالة الالهية) . إن نظرية العقاب الالهي والتاريخ يتساويان - في المفهوم القرآني الاستدلالي - في الموقف الاتهامي وبمنحى آخر فإن التاريخ - الذي يعد حقل تجارب العقاب الالهي - يستمد من هذا العقاب معناه الميثولوجي (معنى الدلالة الميثولوجية) .

وما ترويه نصوص السورة الحادية عشرة (سورة هود) من القرآن - على نفس المثال النموذجي - : عن مآثر نوح مع قومه ، وهود مع عاد ، وصالح مع ثمود الخ . . . تحدد للتاريخ « نماذج معيارية »[٢] لمعنى الخلق والانتاج . ﴿وكلا نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك . وجاءك من هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾[٣] (السورة ١١ ، سورة هود آية ١٢٠) .

---

(1) p. 62 de l'éd. s.n.e.d., Alger, 1974. Trad. dans la **Revue Africaine,** 1873, par Adrien Delpech. Trad. défectueuse.

2- Cl. Claude Cohen, communication au colloque **Islam et Occident au Moyen-Age,** Napoule, 25- 28 oct. 1976, Actes In R.E.I., XLIV, 1976.

(3) Coran, trad. René Blachère, ed. G.P. Maisonneuve et Larose, Paris, 1980.

تلك هي الفترة التي ـ حسب نص مؤرخنا ـ انتج فيها ما يمكن تسميته آثار المعاني الخلاقة. ولنتتبعه في وصف « بعثة الثلج » الشهيرة التي ارسلها «الباي ابوقابوس» ضد متمردي «داراكوا» Daraqwa وقائدهم «ابن شريف» في ١٨٠٦، كتب مسلم بن عبدالقادر: «وصل الباي الى قرية ابو ترفاس (ولي متحالف مع قائد العصيان في داراكوا) ودمرها كلياً ونهب حقولها. وعند وصوله في طريق العودة الى ضواحي l'oued tafna فوجىء بعاصفة ثلجية رهيبة لم تخطر على بال انسان قبل، وقد نفقت كل خيل Makhzen تقريباً. اضطر الباي عندئذ الى العودة سريعاً الى تلمسان. وتشتت جنده في فوضى عظيمة ففقدوا في اعماق الثلوج دوابهم التي كان اليها ملجؤهم، والسروج والبنادق. والتمعت الانهار امام الابصار، وحلت الكارثة في المنطقة كلها وانقصفت الاشجار.

ما أعظم «الله» الواحد القهار الذي عاقب الفراعنة واخضع العماليق (الطواغيت) والذي لا حدود لعقابه ولا زمن ﴿فلا إله إلا هو ولا شريك له﴾[٤].

ما زلنا اذن مع السورة الحادية عشرة (سورة هود) العماليق (الطواغيت) هم حتماً قوم عاد ـ هم أشبه بالاسطورة عند عرب الجنوب ـ ﴿الذين أُتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة﴾ (السورة ١١ الآية ٦٠/ ٦٣).

---

(4) Trad. de l'éd. originale, s.n.e.d., 1974, pp.102- 103.

على هذا المثال النموذجي القائم سابقاً - حيث تحتل الكارثة الكونية المركز الرئيسي - نسج مسلم احداث «بعثة الثلج». إن التصور الذي وصف به مسلم تلك الكارثة هو نفسه التصور النموذجي الرمزي، الذي يسمح مثلاً باستعادة ذكرى الكارثة التي اصابت «أصحاب الفيل». فالكارثة الكونية في الوجدان الديني هي «المرادف الروحي لما نسميه الحتمية التاريخية»(٥).

مع **«دليل الحيران وأنيس السهران»** لمحمد بن يوسف الزياني(٦)، سنتتبع مستوى آخر من بناء التاريخ الوسيط (ما قبل الحديث)، وهي طريقته في الاعداد التي ايدها المؤرخون الغربيون تارة وانكروها تارة اخرى. فواحد مثل E.F. Gautier دهش بأسلوب «ابي ذر» في اعداد «روض القرطاس»(٧) في القرن الرابع عشر. فقد حيرت المؤرخ هذه الطريقة في الاعداد التاريخي: طريقة تجمع كيفما اتفق بين الاحداث العظمى والاحداث الصغرى والذي ارتضى الترجمات الاشد تناقضاً لحدث مروي. بينما رأى Von Grunebaum، رأياً مخالفاً، فقد رأى في ذلك الاسلوب عملاً يدل

---

(5) Louis Awad cité par Anwar Abdelmalek, **Idéologie et renaissance nationale. L'Egypte moderne,** Paris, ed. Anthropos, p.203.
(6) Le texte original établit par Mehdi Buabdelli vient d'être publié par la B.N. d'Alger, (1978).
(7) **Le passé de L'Afrique du Nord. Les siècles obscurs,** Paris, Payot 1937.

على النزاهة وقال: «إن الموضوعية العامة في التاريخ العربي فريدة بذاتها»(٨).

فما هو الأسلوب في «دليل الحيران»؟ إذا غامرنا وقرأنا بطريقة E.F. Gautier فإننا نصدم حتماً بالتنسيق الظاهر في البنية القصصية للحدث. وأول ما يصدم هو نهاية فصل السلالة الرابعة Les Marinide فالحرب بأحداثها الكبرى قد انتهت فجأة باتفاقية تجارية تسمح بإدخال البن والتبغ للمغرب الاقصى مما يقطع التسلسل الروائي بدون سبب منطقي ظاهر. فالصورة المبتذلة لـ « الشعر في الحساء» هي صورة فظة ولكنها تعرض بدقة لهذا النمط الروائي ونرى أيضا تتالي الامثال المتناقضة المحيطة بالحدث: فالزياني، في كلامه عن وصول الاتراك الى الجزائر اورد خمسة تواريخ مختلفة تجتمع وفقاً للتتابع التالي:

١ ـ السنة الأولى من القرن العاشر الهجري، حسب ابو راز الناسيري وابي عبدالله محمد بن اسكار الشريف.

٢ ـ السنة الخامسة عشرة من القرن العاشر الهجري حسب عبدالرزاق الجزائري.

٣ ـ السنة الثالثة والعشرين من القرن العاشر الهجري حسب اليفراني.

---

(8) **L'Islam médiéval. Histoire et civilisation,** Paris, Paillot, 1961.

٤ ـ حوالي السنة العشرين من القرن العاشر الهجري حسب عبدالرحمن الجامعي.

٥ ـ السنة العاشرة من القرن العاشر الهجري حسب مسلم بن عبدالقادر.

وبعد ذلك ينتقل الى تعداد **ملوك الجزائر** دونما تعليق على التواريخ المتناقضة التي يوردها.

ومصدر هذا الاسلوب في البناء التاريخي فكرتان جوهريتان:

(أ) اهتمام مؤرخي القرن الثامن والتاسع بـ «الشمولية» و«الموضوعية» التي طبعت التاريخ العربي ـ الاسلامي بهما.

إن محور التاريخ العربي ـ الاسلامي عند المؤرخين الأوائل كان **سيرة الرسول**. فتدوين كل الأحداث والروايات الصحيحة لإعادة بنائها أوجدت النموذج التاريخي الذي نعرفه: فحول حدث واحد تجتمع بطريقة متنافرة كل الروايات القابلة للتصديق. لنأخذ على سبيل المثال «المسعودي». ففي باب **ذكر خلافة ابي بكر الصديق** من كتابه **«مروج الذهب ومعادن الجوهر»** توجد فقرة بعنوان «بيعة علي إياه»[٩] واليك مضمونها: «وقد تنوزع في بيعة علي بن أبي طالب إياه؛ فمنهم من قال: بايعه بعد موت فاطمة بعشرة أيام، وذلك بعد وفاة النبي ﷺ بنيف وسبعين يوماً، وقيل: بثلاثة اشهر، وقيل: ستة، وقيل غير ذلك». دون أن يناقش ذلك.

---

(9) Ed. Dar al-Andalus, Beyrouth, 1945, p.302.

وينتقل المسعودي الى موضوع آخر. والمنهج نفسه يلاحظ عند الطبري، الذي كلما أراد تحديد موقف ما ـ اعتمد الصيغة التالية: **وهو الثابت عندنا** أي ما هو الاشد ثقة عندنا. وهذه الصيغة ـ ببنائها هذا ـ ليست تأكيدية اطلاقاً. وعند الاقتضاء فهذه الصيغة لا تؤكد ملاحظتنا في القياس الذي بنيت عليه لأنها لم تبنى على التقويم النقدي للاحداث المدونة (المتن) وانما قامت على قوة سلسلة «المسؤولين» الذين يروونها أي (سلسلة الاسناد). وأخيراً، فإن الطبري ينساق وراء (ذوق) أو فطنة العالِم المجرب أكثر من انسياقه وراء معالجة اخبار التاريخ التي تسمح له بذكر التقديرات الواجبة.

(ب) عدم تسلسل الاحداث المدونة تسلسلاً منطقياً : فإن غياب هذا الترتيب هو، حسب رأي غ. باشلار، عقبة أساسية أمام المعرفة المنطقية لكل إعداد علمي، لأنه « بالتسلسل المنطقي تكتسب الاحداث الشاذة بنيتها العلمية »[١٠] .

إن غياب التسلسل المنطقي في التاريخ العربي ـ الاسلامي الوسيط (ما قبل الحديث) يحوله في المنظور المعرفي الى حديث تاريخي او خبر، لا يكتسب صفته الموضوعية لأنه لا وجود له خارج ارادة الله الفاعلة التي هي الحقيقة الكبرى.

ولأن التعاقب التاريخي للاحداث هو مجرد عود على بدء نموذجي. تلك هي اشكال المعرفة التي كونت تاريخنا الوسيط. والتي أوجدت عبر ما ينيف عن الألف سنة **التصور** المثالي للماضي، وهو

---

(10) **Le nationalisme appliqué**, Paris, P.U.F., 1949, p.24.

تصور قائم على استواء الوجود بقدرة الله التي تتردد باستمرار بفضل «آياته». ولن يتغير هذا التصور المثالي الا بُعيد ١٩٠٠.

٢ ـ الانتقال الى الطريق القومي لتخيل استمراريتنا التاريخية: في ١٩٠٧، جرى حدث عظيم احدث انقلاباً في الحياة الفكرية الجزائرية، وهو اصدار «دار فونتانا للنشر» الجزء الأول لـ «**كتاب تعريف الخلف برجال السلف**» لأبي القاسم الحفناوي(١١). وهذه هي المرة الأولى التي يرسل فيها مؤرخ جزائري مخطوطة للمطبعة. هذا الحدث المزدوج جاء في الوقت المناسب ليظهر مدى ولع صفوة العلماء الجزائريين بالتاريخ.

وفي عام ١٩٠٦، شرع الناشر الجزائري احمد بن مراد تركي في نشر الأجزاء الثلاثة من **تاريخ التمدن الاسلامي** وهو كتاب مجدد في التاريخ العربي ـ الاسلامي في نهاية هذا القرن التاسع عشر. وقد اعتمد هذا المؤلّف كمسلمات له النهج الخلدوني والنشوئي الغربي (مذهب النشوء والارتقاء)(١٢). وقد حرر محمد بن شنب تقريراً اجمالياً عن هذا الكتاب في **المجلة الافريقية** جاء فيه: «إنه المؤلف

---

(11) vol.1 (1907) 207 p., vol.2 (1909),524p.

(12) Pour G. Zaydan, «L'histoire d'une nation n'est rien d'autre que l'histoire de sa civilisation non l'histoire de ses guerres et de ses conquêtes». Tout le livre est construit sur cette idée que l'Islam est une charnière entre les formes antiques et les formes modernes de la civilisation. Nous faisons réference à l'ed. Dâr Maktabat al-Hayât, s.d.e., Beyrouth.

الوحيد الذي ظهر بالعربية في هذا النمط من الدراسات[١٣]. وقد عمل محمد بن شنب على نبش المؤلفات المكتوبة عن الماضي الجزائري، ولا سيما مؤلفات المؤرخين: وبدأ سنة ١٩٠٧ بنشر كتاب «**البستان**» لابن مريم (بين نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر)، و«**الرحلة**» للورتلاني (في القرن الثامن عشر) سنة ١٩٠٨، و«**عنوان الدراية**» للغبراني (بين نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر) سنة ١٩١٠، وقد سبق ذلك نشر كتاب «**نحلة اللبيب في اخبار الرحلة الى اللبيب**» للجزائري ابن عمار (في القرن الثامن عشر).

في ١٩٠٣ اصدر «ابو ربيع سليمان بن يخلف المزاتي» في تونس «**كتاب السيَر**» بالطباعة الحجرية.

وقد جاء كتاب «الحفناوي» على مثال كتب «**الطبقات**» في التاريخ العربي - الاسلامي الكلاسيكي (القديم) الذي اشتمل على مجموعات كبيرة ومملة دوّن فيها سيَر المشهورين من العلماء والرجال في عصر معين[١٤]. يخلو كتاب «الحفناوي» من هذه الناحية من جدة العرض وطرق الاستدلال العملية. ويحمل بيانه نفسه طابع الماضي بتقليده بيان العصر الوسيط، بهذا النثر المفخم، والموزون والمسجع. وهو في هذا المؤلف ليس إلا جمّاعاً يكتفي بتدوين الاحداث دون أي تفحص نقدي. كذلك فإن نهجه هو نهج التاريخ

---

(13) R.A., 1904.

(14) Comme les **Wafayât** d'Ibn Qunlud ou le «**Unwân al-Diraya**» d'al-Ghobranî

الاسلامي الكلاسيكي الأقدم: هي سلسلة أحداث اسطورية ـ تاريخية تنتظم في مجموعات شاذة لا تخلو من الفوضى وانعدام التسلسل الزمني. وبذلك فإن الحفناوي رجل من الماضي.

لكن الحفناوي ليس مجرد مؤرخ قديم، فعند البحث في اصول انتاجه نجد أن كتابه يحمل الجديد بل الحديث. لأنه، قصد بالتاريخ تحقيق هدفين:

(أ) أن يُعرف شعبه بماضيه المجيد الذي نسيه بذكر اشهر «القدماء» (رجال السلف) وان يقوي فيه الوعي بالاستمرارية التاريخية.

(ب) مواجهة ايديولوجية الغازي المستعمر القائمة على نفي حضارة الشعوب المستعمرة بإثبات الحقيقة التاريخية لأمة مغلوبة أفل نجمها.

كتب في مقدمته «يظهر ان الجزائر (القطر الجزائري) اخفق قديماً في دراسة مختلف فروع العلم التي وردته من كل الآفاق. وقد أخذت بأسسه ولكنها أهملت قواعده ومضمونه. وكان مركز اشعاع اعلى راية العلم نظير جاريه المغرب الأقصى والأدنى.

وقد لمع نجمه في كل الاقطار وثبتت مكانته في التاريخ بفضل جهود العلماء الذين بنوا دلالاتهم على أسس ثابتة منيعة. وكان هؤلاء العلماء نجوم عصرهم في الهداية واقطاب دهرهم في الرأي والمشورة. ولكن الزمن قد تغير وطواهم النسيان في ايامنا هذه. ولذلك قال شاعرهم:

«تـلـك آثــارنــا تــدل علينــا فـانظروا بعـدنـا الى الآثـار[15]»

هـذا العرض التـاريخي هو نتـاج للوعي الذي هـزه الغـرب. فالغرب في محاولته ابراز **انحطاط** الشعب المغلوب كشف عن عظمته الماضية التي حاول التاريخ الاستعماري أن يطمس معالمهـا. لأنه لا يـوجد شعب بـدون تاريـخ يعمل عـلى اظهاره. زد عـلى ذلك، ان المؤرخ الغربي، إذ يتلمس العذر لنفسه بجهل هذا الشعب ماضيه، فـإنـه يـذهب في بحثـه التعليمي مـذهبـين: الأول يتنـاول تـاريــخ الانساب الذي تشكل الجزائر (القطر الجـزائري) وحـدته الـدلالية؛ والثـاني هو تلك النـظرة الحديثـة التي لم يتمكن التاريـخ القـديم من ادراكها.

فالحفناوي قد خط نهجاً جديداً في فهم التاريخ الذي كان مـا يزال حبيس منهج التاريخ العربي الاسلامي التقليدي (الكلاسيكي) ونظرته.

٣ ـ ظهور التأريخ القومي:

لمــا ظهـر الجـزء الأول من «**تـاريــخ الجـزائــر في القــديم والحديث**»[16] لـ «مبارك الميلي» في عام **١٩٢٩**، كان التأريخ

---

(15) vol.1, p.7 l'expression **al-Qutr al-Jazâ'iri** est soulignée par l'auteur.

(16) Vol.1 (1929), 374p., vol.2 (1932), 444p. Constontine. La s.n.e.d. en a donné une édition récente en un seul volume de 888p. présenté par son fils Muhammad al-Milî avec des soit-disant «correctifs» et «rajouts».

الجزائري منهمكاً في بناء نفسه على قواعد ايجابية قطعت صلتها بأسس الانتاج القديمة واشكالها . وذلك لأن لحاقنا بركب الحديث في العشرينات قلب الأسس السياسية لمجتمعنا . إن انهيار اطر الاجتماع السياسي القديمة من جمعيات دينية الى الزوايا والمساجد والحرف افسح في المجال امام بروز اطر جديدة مستعارة من المجتمع المدني البرجوازي . مثل الحلقة ، والرابطة ، والمؤسسة ، والنقابة ، والحزب السياسي . وقد خلقت الاشتراكية الثقافية في المدارس بنى فكرية حديثة كونت المثقف العلماني .

لكن هذه **النهضة** اعادت بعض مفكرينا الدينيين الى **العقلانية السلفية**. وقد امتدت حركتنا السياسية وتحولت الى حركة وطنية غذتها مقولة الدولة ـ القومية Etat-nation التي كانت المحركة للسياسة الغربية المعاصرة التي تعود الى القرن الثامن عشر. وقد زاد في هذه القطيعة ان المؤرخ كان مجبراً على اعادة صياغة عمله، ووسائله، واهدافه واعتماد اداة جديدة للبحث تتلاءم مع تاريخ الانساب للأمة التي تقضي نزعتها القومية بالبحث عن الجذور التاريخية الثابتة.

وهذه الطريقة في العمل التاريخي هي جديدة حتماً. فالمؤرخ بعد ان اطال تمحيص تراثه التاريخي، لم يجد بداً من اعتماد منهج ابن خلدون في عمله. لأن الأسلوب السائد المفروض كان اسلوب مدرسة التأريخ الجزائري التي تعمل على صياغة تاريخ الجزائر مهزومة يرضي غرور المحتل وادعاءاته، ومع ذلك فقد كان هذا

الاسلوب المعرفي النموذجي الذي يتحمل مسؤولية مشروع التاريخ ـ القومي histoire-nation.

وباعتماده نهج ابن خلدون فقد اضطر ان ينفي عن نظرية التراتبية الالهية ما تدعيه من الحتمية الجبرية لاحداث هذا العالم ولا يسلم الا بجدلية التحول الذاتي لتلك الاحداث. بذلك هو يقر الاحداث حسب وضعيتها التاريخية.

وما كان للمؤرخ ان يواجه كل هذا التصدع في النظر التاريخي ويواكب النهج الحديث دون ارتجاج عميق في نهجه وعقيدته الماضيين. ولذلك كتب (الميلي) يقول: «ان اشق ما عاناه المؤرخ العربي هو كتابة التاريخ بالنهج الحديث»[١٧]. ويضيف ساردا تجربته الخاصة «لقد عانيت كثيراً من تحقيق المسلمات التاريخية، وجمع الوثائق، وتوضيح الأهداف التاريخية وفقا للأسلوب الحديث»[١٨].

ولكنه خلص من ذلك بشجاعة مقدماً لمؤلّفه ببحث عن الدوافع النقدية مرفقاً إياه برسومات تزينية موضحة، متقيداً ـ بالرغم من عدم الدقة احياناً ـ بالتعليقات والحواشي المؤكدة على الملاحظات والمراجع، ومستقياً في فهرسته ومراجعه أعمال المؤرخين الفرنسيين (٢٠ مرجعاً) التي اوجزها وعربها توفيق المدني وعامر الدهينة.

ولكن ما هو التاريخ ـ القومي عند الميلي؟

---

(17) op.cit., p.10.
(18) op.cit., p.11.

«التاريخ كما قال هو مرآه الماضي ومقياس لفهم الحاضر. هو حجة وجود الشعوب، وديوان فخارهم، وموطن تفتح وعيهم، ووثاق وحدتهم، ومقياس تقدمهم».

هذا التعريف العملي للتاريخ مدون بكل وظائفه التربوية الجديدة، لأنه عندما يقف ابناء الأمة على ادوارها ويدرسها شبابهم، ويعون وجودهم، فإنه لا يمكن لأي عدوان او توسع أن يمتص قوميتهم. عندما يدركون روعة ماضيهم ومجد «اسلافهم» فإنهم يقاومون بخس الباخسين، ومسخ الماسخين، وقدح القادحين. ويدركون بالتالي معنى سيادتهم ليقاوموا سيطرة الطغاة واذلالهم»[19].

ويصبح التاريخ اذ ذاك تاريخ الشعوب، وليس تاريخ الملوك والأمراء والحكومات. ويصبح دور المؤرخ أن يضع نفسه «في خدمة الوطن» (في سبيل الوطن). ويتوجب عليه بالتالي هذه المهمة المزدوجة: مجابهة تاريخ الطغاة من ناحية، ومقاومة الاساطير التي ترهق تاريخ الوطن من ناحية اخرى، لأن «معظم المؤرخين القدامى سجلوا كل ما كانوا يسمعونه وجمعوا كل ما كانوا يجدونه دون ان يتكلفوا عناء التحقق من مروياتهم».

ان المؤرخ يأخذ على التاريخ الاستعماري ثلاثة مواقف مسبقة متعصبة:

(أ) دوغمائيته Dogmatisme اي التسليم العقلي بدون تمحيص.

---

(19) op.cit., p.17.

(ب) عقدة الاستعلاء وحب استعباد الآخرين .
(ج) جهله للمصادر الصحيحة .

وفيما يتعلق بالجزائر فإن تاريخها القديم هو حقل خصب لتطبيق تلك المواقف المسبقة المتعصبة. ولذلك استهل «الميلي» تاريخه بـ « البداية» . في هذه المراجعة التأريخية يكتشف القارىء ان الاستعمار هو نفسه قديماً وحاضراً في طبيعته العدوانية والاغتصابية .

ومثال ذلك «ان الرومان لما اجتاحوا افريقيا الشمالية جردوا الملوك والامراء من املاكهم كلها. ودوما كانت الدولة الرومانية تأخذ نصيبها من الغنائم وتوزع القسم الآخر على جنودها والمرتزقة . وتفرض الضرائب على الشعب. وكانت تنزع من الثائرين املاكهم وتوزعهم بطريقتها المألوفة»(٢٠) .

إن قراءة ماضينا بهذا المفهوم القومي الجديد نجده عند المؤرخ «توفيق المدني » في كتابه «**تاريخ شمال افريقيا او قرطاجة في اربعة عصور**». الذي يقوم على الجمع بين مصدرين اساسيين: الامبراطورية الرومانية من ناحية، والمرحلة التاريخية البربرية من ناحية اخرى. «فالدولة الرومانية كما يقول هي دولة استعمارية بكل معنى الكلمة (نموذجية) تقوم على مستعمرات عديدة في البلد المحتل ولا ترى في المواطن البربري إلا مجرد اداة انتاج، وآلة مسخرة لخدمة المستعمر، ومصدراً للضرائب، ومجنداً مجبراً على مقاتلة ابناء جنسه الثائرين في وجه «روما»(٢١) .

---

(20) op.cit., p.278.
(21) Cl. Saaddine Ben Cheneb, **Quelques historiens arabes modernes de l'Algérie, Revue Africaine,** 1956.

ويكفي أن نستبدل فرنسا بروما حتى تصبح اللوحة ذات واقعية مدهشة. فالرهان السياسي للتاريخ يصبح اذن جلياً: نغوص في اعماق الماضي لكي ندرك الحاضر بشكل افضل. لأن كل ما في تاريخنا يؤكد قوميتنا الثابتة. ولكن «المدني» اورد في «**كتاب الجزائر**» (في ١٩٣٢) «ان ابناء العربية في الجزائر يجهلون كل شيء عن ماضيهم، انهم يجهلون تاريخه، ويجهلون جغرافيته، ويجهلون نظامه الاداري وقوانينه، ويجهلون العناصر المؤلفة لسكانه، ويجهلون وضعه الثقافي، وقدراته الاقتصادية، وكأنهم يعيشون في بيت غريب عنهم»[٢٢].

إن المقال التاريخي يصبح من جديد وبدون كلل مقالاً تربوياً أي مقالاً يثقف ويحشد الطاقات لأن القومية، التي ليست الا حقلاً استدلالياً تسجل خلاص الأمة التي لا يمكن: «ان تنهض الا بأن تبقى وفية لدينها، وتقاليدها، ولسانها وثقافتها» لذلك «فإن الجزائر العربية والإسلامية لن تتحرر إلا في أحضان قوميتها، أي بعروبتها وإسلامها»[٢٣].

وفي الفترة ما بين ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥، ظهر مؤرخون جدد تتلمذوا في المدارس الاستعمارية. وهم عبد العزيز خالدي Abdellaziz Khaldi، ومحمد شريف سهلي Mohamed Cherif Sahli، مصطفى الاشرف Mostafa Lacharaf. واتجاههم التاريخي هو الذي رسمه «مبارك الميلي» في برنامج الحركة القومية: نقل النضال

(22) Al-Mattbaᶜa al-ᶜarabiya, Alger, 408p., 24pl. pp.2-3.
(23) op.cit., p.400.

ضد الاستعمار الى ميدان التاريخ. فعبد العزيز خالدي في مؤلَفه «**القضية الجزائرية امام الوعي الديمقراطي**» (١٩٤٦) تأثر بطريقة «توفيق المدني» في «كتاب الجزائر» ونهج نهجه في الحكم على نتائج الاستعمار. وإذ كرس «محمد سهلي» مؤلفين لبطلين من ابطال الحرب ضد الاستعمار وهما **جوكوست وعبدالقادر**[٢٤] (١٩٥٣)، فإن مصطفى الاشرف قد خص احدى مقالاته بالمقاومة ضد الاستعمار في القرن التاسع عشر **١٩٥٤**[٢٥]، فكتابات المؤرخين الجزائريين واصلت، هي وابطال الجزائر في تنشئة الشعب وتعويده على العزة التاريخية.

وفي عام **١٩٥٤** برز مؤرخ جدلي آخر اراد توعية الشباب الجزائري بتوجيهه نحو دراسة تاريخهم الغني ليؤكد فيهم احترام «السلف». فوضع بين ايديهم «**التاريخ العام للجزائر**» من قبل التاريخ حتى القرن العشرين[٢٦]، وكان طبيعياً أن يخصص العصر الإسلامي بالجزء الأكبر من كتابه، ولم تكن الغاية رفض لاتينية

---

(24) **Le message de Jughurta** et **Abdelkader, chevalier de la foi** comme l'ouvrage de A. Khaldi sont publiés à Alger aux édition en Nahda Ils seront publiés.

(25) **Temps Modernes,** avril 1954. Repris in **Algérie. Nation et sociéte,** Paris, ed. F.Maspero, 1965.

(26) Alger, al-Mattba^{c} a al-Arabiya, 1954-1955. Depuis l'ouvrage a connu trois rééditions à Beyrouth(1965,1980) et à Alger (1971). C'est l'édition de Dâr al-Thaqâfa que nous utilisons: 4 vol., vol.1,385 p, vol.2,290 p., vol.3, 608., vol.4,497 p.

الجزائر وإنما كانت الإشادة بعظمة العهد الاسلامي الذي شوهته كتابات المستعمرين واساءت اليه .

إن تدوين التاريخ الجزائري الحديث لم ينقطع عن ان ينحو منحى التدوين الاستعماري . فمنذ البدء نمت تلك الكتابة وطنية قومية . وكذلك كان التدوين الاستعماري . ورغم ان التدوين الحديث قد اخصبته الحركة القومية فإنه اتسع وتطور بفضل الرهان الاستعماري السياسي ـ الثقافي . وبالرغم من أن التدوين الحديث ولد في احضان الجدل الاصلاحي الا أنه لم ينعتق كلياً من منحاه الاستعماري السابق . ولنحمد هذا التدوين لأنه اسهم في بناء **نظرتنا السامية لتاريخنا الماضي** . أي انه ساعدنا على تصور مناهج الاستمرارية التاريخية التي تبرر تحررنا القومي وتؤكد شرعيته(٢٧) .

وهذه الرؤية التاريخية تقوم، من وجهة نظر المقال التاريخي على أربعة اتجاهات معرفية :

---

(27) Nadjah, 2 octobre 1932 (A propos des deux volumes de **Târikh al-Jazâ'ir)** «Ils nous arraché le voile qui nous cachait l'histoire de nos pères; ils ont réinsufflé la vie dans les restes sacrés de nos ancêtres pour leur permettre de nous dire eux-même leur grandeur et leur gloire passée, ou plus exactement de nous tendre le main et de nous tirer du bombier où nous nous enlisons depuis de longues années,» cité par J. Desparmet, **Naissance d'une histoire «nationale» de l'Algérie,** In **Bull. du comité de l'Afrique française** n. 7, juillet 1933, pp.

الاتجاه الأول: نظرية ابن خلدون في اعادة التملك.

الاتجاه الثاني: إقرار الحدث في ايجابيته.

الاتجاه الثالث: امتلاك تقنيات الغرب وطرائقه في علم التاريخ.

الاتجاه الرابع: تكريس القومية كوحدة دلالية.

هذا التاريخ السلالي للقومية، نظّم منذ ظهوره تقريرنا عن الماضي في هذه الرؤ ية التاريخية المتسامية التي لا تفسر شيئا بقدر ما تقر شرعية كل شيء، لأنها ليست إلا جزءاً من الأيديولوجية القومية التي وجدت تعبيرها الملائم في الرواية التاريخية.

انتلجانسيا ام مثقفون في الجزائر؟
ملاحظات من أجل حصيلة نقدية

بقلم : عمار بلحسن
كاتب واستاذ بمعهد العلوم
الاجتماعية ـ جامعة وهران

١ ـ ملاحظات أولية

قبالة ، ومقاربة لنقاش متنوع ونشيط وجدي حول اشكالية « المثقفين الجزائريين » تقف وتتحرك أية محاولة للحوصلة أمام صعوبات ومنزلقات منها :

ـ التخطيطية المختزلة كآلية منطقية وتحليلية مجزئة للافكار والمواقف ، ومنتجة للتجريد الانتقائي الذي يفصل المفاهيم عن مراجعها النظرية والسسيولوجية والفلسفية ، وعن التاريخ وعيانيته الملموسة المجسدة في سياقات ومسارات وصراعات وتناقضات المجتمع الجزائري الحالي .

ـ إغفال وتجاهل الظروف السسيو ـ تاريخية التي عرفتها جزائر الثمانينات ، والتي وضعت « المثقفين » في حالة نقاش ، واعطت لخطاباتهم وتفكيراتهم حول انفسهم ، وعملهم ، وشبكة علاقاتهم مع التاريخ ، الثقافة ، العلاقات والقوى الاجتماعية ، الدولة والسلطة تبريرات معينة واهدافا محَدّدة ذات دلالات هامة ، لا سيما

بعد مرور عشريتين من الاستقلال السياسي والتنمية .

ـ الانـدهاش أمـام « حِدَّة وجِـدِيَّة » المـداخـلات العشـر التي عرفها النقاش عموما ، والذهـول عن « المقاصـد » المتناقضـة المعبرة عن تنـاقض الحركـة الفكريـة ـ الثقافيـة الجزائـرية المعـاصرة ، رغم تأثيرات الخطاب الوطني ـ الشعبوي اللاغي والنابذ للتناقضات باسم مشـروعية مـاضية مؤدلجـة باطـروحة النضـال ضد الاستعمـار التي فقدت نواتها التبريرية نهائيا بعد مرور ٢٠ سنة من الاستقلال .

كما أن اغفال معاناة المتدخلين في مُقَـاربتهم للواقع الفكـري ـ الثقـافي الجـزائـري واشكـاليـة « المثقف » انـطلاقـا من نـظريـة أ . غرامشي يؤدي أما إلى السقوط في « النظرية » نهائيا ، بآلية معـروفة للاسف في الفكرَ العربي المعاصر هي « الآلية النصوصية ـ الفقهيـة » التي تلغي الواقع الملموس باسم نص نظري ، كان خـلاصة تحليـل ملموس لواقع ملموس ، كـما هو الحـال بالنسبـة لنظريـة الفيلسوف الايطالي غرامشي ، أو تجاهل كل حصيلة التفكير النـظري والغائهـا باسم « خصوصية » وتجريبية وهمية ، غير واعية وجـاهلة لديـالكتيك النظرية والممارسة التي عبر عنها غـرامشي (دائما هـو) باسم فلسفـة البراكسيس .

تجاوزا وتفاديا لهذه المنزلقات ، تطمح هذه الملاحـظات لتكون مواد حصيلة نقدية مؤقتة وافتـراضية ، ليس إلا ، لاطـروحات هي في حقيقة الأمر ، فرضيات بحث جدية وثرية ، ما تزال تنتظر عملية تحقيقها وتدقيقها وانجازها ميدانيا وعيانيا . إن ايجابيـة هذا النقـاش تبدو لي في كونه فتح ميدان متعدد الدروب العلمية ، بانتاجه لمفاهيم

ومصطلحات وفرضيات هامة تصلح لحرث واقع « الانتلجانسيا الجزائرية » وعمقها التاريخي وعلاقاتها الحاضرة ، ويوتوبياتها المستقبلية .

وحتى لا نقول أن هذا النقاش يبدو بمعنى ما ، وضعاً للعربة أمام الاحصنة نظرا لطابعه النظري ـ الشمولي وعدم ارتكازه على دراسات سابقة موثقة وملموسة وقطاعية وملموسة . . نرى أن أية حصيلة هي حصيلة نقاش يشكل في الحقيقة اشكالية ، لا يمكن أن ندعي أننا حَللناها وحلّلناها وفككناها نهائيا ، لأن حلها يتطلب دراسات قطاعية ثرية وملموسة ، قبل الوصول إلى حصيلة شاملة نظرية عن المثقفين الجزائريين . .

أين البحوث والدراسات عن « الفقهاء والادباء والعلماء والاطارات الاقتصادية والنخب السياسية ، والايديولوجيين ؟

واين التحليلات العلمية عن شبكة علاقات انواع « المثقفين الجزائريين » الملموسة بالبنيات المجتمعية تاريخيا وحاليا (القبيلة ، الدولة الاوتوقراطية بنيات الرأسمالية الكولنيالية الفرنسية ، الحركة والثورة الوطنية ، الأمة الدولة الوطنية ، الطبقات والقوى الاجتماعية ، الرأسمالية ، الامبريالية ، الاشتراكية المنظومات الايديولوجية الاسلامية . .) .

وأين تلك التفكيرات الملموسة عن علاقات التثاقف والتفاعل مع المنظومات العلمية ـ الفكرية ـ الايديولوجية المحلية والكونية ورموزها وشخصياتها المثقفة (التراث الثقافي ما قبل الاسلامي ،

التراث الحضاري ـ الفكري والنظري الاسلامي الايديولوجيات النهضوية الإسلامية المعاصرة ، الليبرالية ، الماركسية . .) .

لذا . . يظهر النقاش برمته ورقة محددة ، ايجابيتها الاساسية هي قدرتها على اعادة صياغة وبناء اشكالية « المثقف الجزائري » ووجوده تاريخيا وحاضرا ومستقبلا . في ظرفية تاريخية ، ظهرت فيها المسألة الثقافية كمعبِّر عن تناقضات المجتمع الجزائري الحالي وبحثه المضني عن صياغة مشروع تنميته وخروجه من التخلف وبناء مجتمع متقدم وعادل .

بشأن هذه الظرفية السسيو ـ تاريخية ، أي الثمانينات ، يمكن ايراد بعض المؤشرات الدالة ، في نظري :

ـ إن فترة ٨٠ ـ ٨٢ هي لحظة أو فترة « **الحوار الوطني حول الثقافة** » التي دفعت بكثير من المثقفين « الكبار » إلى حلبة التبادل والتواصل الفكري ـ الايديولوجي ، مما اعطى ثقلا نوعيا ملاحَظا لهذا النقاش[1] نظرا للمسائل التي طرحها هؤلاء المثقفين ، ولوزن كلمتهم وتأثيراتها سياسيا واجتماعيا وجماهيريا (مثقفون قياديون للدولة والحركة الاجتماعية ـ السياسية)

---

(١) نقاش شارك فيه مثلا أحمد طالب الابراهيمي (ابن الحكيم) وعثمان سعدي ، ومصطفى الاشرف ، ومحمد الميلي ، كما شارك فيه المثقفون الحزبيون لحزب جبهة التحرير الوطني ومنظماته الجماهيرية عن طريق عرض ملف « السياسة الثقافية » ـ واجتماع اللجنة المركزية لمناقشة الملف والمصادقة عليه في ٣٠ جوان ٢ جويلة ١٩٨١ . . كما شارك فيه مثقفون آخرون . . منهم جماعة « ملتقى ياكوران » أوت ١٩٨٠ ، وجامعيين كوادي بوزار وعبد الغني مغربي . . انظر عناصر هذا الابحاث ، **حوار وطني حول الثقافة ـ مقالات صحفية** ، مارس ١٩٨١ ـ الجزائر .

ـ إن هـذه الفترة يمكن تسميتها بـ « مناقشـة الميثاق الـوطني الثقافي » رغم ضيق هذه المناقشة ونقص ديموقراطيتها ، فقد شاركت فيها شخصيات وقوى اجتماعية وإيديولوجيـة متنوعـة بهدف تحـديد « السياسة الثقافية للبلاد » التي وجدت حصيلتها في توصيات الدورة الخامسة للجنة المركزية لحزب جبهة التحرير الوطني.

ـ على المستوى الاجتماعي ، لعبت احداث القبـائل في ربيـع ٨٠ ، وحركة « الطلبة المعربين » وصعود النزعة الاسلامية المحافـظة وتجسـدها في حـركة اجتمـاعية سيـاسيـة شلليـة . . ادوار هـامة في « اشعال » الحركة الاجتماعيـة ـ الثقافيـة وظهور تيـارات كثيرة ذات استـراتيجيات ايـديولـوجية متنـاقضة عـلى سطح الثقـافة الجـزائريـة (النزعة البـربريـة ، ونزعـة « الثقافـة الشعبية » النـزعة « العـربية ـ الاسلاموية » بمختلف « تياراتها » النزعة التقدمية . .) .

وقـد أدى هـذا « الغليـان » إلى خلق دينـاميكيـة ملحـوظـة ، انعقاد ملتقيات كتابة التاريخ ، الملتقى الوطني حول الفنون والآداب والثقـافـة ، التـأكيـد عـلى دور المثقفـين واهميـة الثقـافـة والسيـاسـة الاجتمـاعية ـ الثقـافية وتعبئـة رجال الفكـر والفن والأدب ، وعقـد مؤتمرات المنظمات المهنية ـ الثقافية (الكتاب والادباء ، المهندسين ، الادباء ، الحقوقيين ، الاقتصاديين والسسيولـوجيين . .) في ظـرفية تتسم بتـذبذبـات على المستـوى الديمـوقراطي ، ومبـادرات مراجعـة العشريتين الماضيتين من التنميـة الوطنيـة ، وظهور الايـديولـوجيات والمواقف المرتبطة بالإختيارات الاساسية للبلاد والجماهير والـدولة ، و « انفجار » حركـات الصـراع الاجتمـاعي هنـا وهنـاك في شكـل

حركات جماهيرية وصراعات الفئات والمجموعات السياسية والايديولوجية تحت سطح المجتمع الجزائري . .

هذا السياق يعطي أهمية ودلالة هذا النقاش وايجابيته التي تتجسد في نظري في خصوصية ودقة موضوعه ، وشجاعته في كشف وتعرية « المكبوت » وكفاءته في تحديد اشكالية تعرضت للصمت والتجاهل - ربما نتيجة لخوف تاريخي من المثقفين واستمرار نزعة مضادة للمثقف باسم شعبوية غير محددة المعالم - وبناء محاورها واوضاعها المترابطة . . هذه الاشكالية هي « اشكالية المثقف الجزائري أو المثقف في المجتمع الجزائري » كمنظومة من العلاقات التي تنسجها داخل فكر معين مشاكل واوضاع عديدة مترابطة ومتمفصلة ، لا يمكن حلها منفردة ، ناتجة عن التاريخ الوطني والصراع ضد الاستعمار ، وخصوصية الصراع الاجتماعي في الجزائر وتناقض استراتيجيات القوى الاجتماعية الخاصة بالمشروع المجتمعي الكلي المستقبلي ، وعلاقات المجتمع بتيارات ثقافة نهاية القرن العشرين على المستوى العالمي والكوني كتيارات تعكس اساسا الصراع بين المشروع المجتمعي الاشتراكي والمشروع الرأسمالي - الامبريالي .

كيف إذن قاربت مداخلات هذا النقاش اشكالية من هذا النوع ؟ وما هي خريطة المواقف المتعلقة بتحليلها وصياغتها وحلها . . التي افرزها هذا الحوار ؟

٢ - محاولة لبناء محاور اشكالية النقاش واسئلته

يمكن بناء اشكالية النقاش الذي دار حول « المثقف

الجزائري » على النحو التالي :

ـ هل هناك انتلجانسيا في الجزائر ، تتظاهر وتعمل كمجموعة اجتماعية منسجمة وعضوية ، تقوم بالانتاج المعرفي والايديولوجي المتنوع ، وتملك ميادين عملها ومؤسساتها المادية واجهزتها الثقافية والايديولوجية ، وتعبر عن مواقفها الفكرية والادبية والفنية من قضايا المجتمع والتاريخ والمستقبل ، وتطرح رؤاها المستقبلية وتصيغ يوتوبياتها انطلاقا من قراءتها لواقعها وواقع الجماهير والتاريخ والعصر . . أم أن هناك شراذم من المتعلمين والادباء والتقنيين المثقفين ، يبدون كشغيلين ذهنيين معزولين وفرادى ، ضمن علاقات ومؤسسات هشة ضعيفة ، وقنوات ثقافية رديئة ، للتبادل والانتاج الثقافي الذي يعكس هشاشة وعدم اكتمال النسيج الفكري ـ الثقافي والاجتماعي ؟ .

ـ هل هناك امكانية لبناء نمطية للمثقفين الجزائريين على اساس معايير محددة : التفريق بين الشغيل الذهني والمثقف النقدي ؟ على اساس تفرقة غرامشي بين المثقف العضوي والمثقف التقليدي ؟ أو على اساس نمطية اخلاقية ـ سياسية من نوع ثنائي : مثقف شريف / انتهازي ، مثقف ثوري / رجعي ، مثقف في خدمة المصلحة الشخصية / مثقف في خدمة المصلحة العامة . . الخ .

أو على اساس معايير تنظيمية مؤسساتية من نوع : مثقف موظف / مثقف نقدي حر ، مثقف تقني تابع / مثقف مفكر . . الخ .

.. أي هل هناك نمطية خاصة بمثقفي المجتمع الجزائري الحالي ؟

ـ ما هي العلاقات المتنوعة ، المعقدة ، التي تربط المثقف الجزائري الحالي بمجموع ابعاد مجتمعه التاريخية ـ التراثية ، الحاضرة ، والمستقبلية ؟

أي ما هي مضامين ومحتويات هذه العلاقات :

المثقف / التاريخ المجتمعي من تراث ثقافي ـ حضاري متنوع .

المثقف / الدولة والسلطة أو السلطات ، كعلاقاته بالدولة وسلطة المجموعات الاجتماعية ، وسلطة التقاليد والاعراف والقيم السائدة والايديولوجيات والتيارات الفكرية المختلفة . .

المثقف / الطبقات والقوى الاجتماعية المختلفة وصراعاتها السياسية والاقتصادية والايديولوجية .

المثقف / اللغة وادوات ووسائل التعبير والتوصيل .

المثقف / والمحيط الاجتماعي ـ الثقافي من مؤسسات للانتاج والتوزيع والنشاط الفكري والادبي والفني والاعلامي . . الخ .

بصياغة موجزة ما هي علاقات المثقف بمحيطه الاجتماعي ـ السياسي ـ الثقافي وعمقه التاريخي ، وتفاعله مع العصر والتاريخ ؟

تلك هي المحاور الثلاث أو المفاصل الثلاث التي تشكل موضوع هذا الحوار الذي جرى في الحقيقة بين « مثقفين » ينتمون

لاربع انواع من « الاختصاصات » أو « المهن الفكرية » :

ـ المثقفون الانسانيون « المتأثرون اساسا بالنظريات والمناهج السائدة في العلوم الانسانية خصوصا الماركسية بكل تنوعاتها .

ـ المثقفون الميدانيون العاملون في قطاع « المهن الفكرية التطبيقية » المتأثرون أساسا بافكار براغماتية نفعية وفعالة اجتماعياً واقتصاديا ، المتوجسون خيفة من « المثقفين المنظرين » و « جمبازهم الفكري ـ النظري » .

ـ المثقفون العاملون في مؤسسات الانتاج الاعلامي والفني (صحفي ومخرج سينمائي) .

ويشترك كل هؤلاء المثقفين ـ ما عدا السينمائي علي عقيقة ـ في كونهم شغيلين مثقفين يعملون ويعيشون من قطاع ومؤسسات الدولة الثقافية ـ الايديولوجية (الجامعة ، الاعلام ، الصحة) ، وكذلك في كونهم مثقفين ذوي تعبير ولغة وثقافة فرنسية ، فقد جرى هذا النقاش بشكل عام بين مثقفين « مفرنسيين » ولم يعرف سوى مداخلة واحدة من طرف مثقف « معرب » . . الامر الذي يحمل دلالة كبيرة ، نظرا لأنه يشير إلى « الهوة » التي تفصل الدائرتين الثقافيتين ـ اللغويتين في الجزائر . . رغم أن النقاش جرى فوق صحيفة وطنية معروفة وتناول قضية حيوية تهم الثقافة والمثقفين الجزائريين بصفة عامة .

٣ ـ انتلجانسيا أم مثقفون ؟

هناك اجماع شبه كلي على فكرة هي :

غياب وعدم وجود انتلجانسيا جزائرية ، كمجموعة مثقفة اجتماعية منظّمة ، مستقلة ذاتيا ، اصيلة ، مُتَجَذِّرة في التاريخ الجزائري والتراث الثقافي الوطني والعربي منتجة لخطابات فكرية نقدية ، ومعبِّرة ومُنَسِّقة ومنظرة للممارسات المجتمعية المختلفة ، ومبدعة للمعرفة والعلوم ، وعضوية على المستوى الاجتماعي ـ الايديولوجي والطبقي ، ومتخلصة من التبعية النظرية والفلسفية والمادية لانتلجانسيات المركز المزدوج : (أوروبا بالنسبة للمثقفين الجزائريين ذوي التعبير الفرنسي والشرق العربي بالنسبة لذوي التعبير واللغة العربية) أي متفاعلة ومتمثلة نقديا لتيارات الثقافة العربية المعاصرة وتراثها ، ولتيارات الثقافة الأوروبية والعالمية المعاصرة ايضا ، متملكة لمؤسساتها الثقافية من دور نشر ومنابر ومجلات وجمعيات علمية وثقافية واتحادات فكرية وظروف نشاط ثقافي وايديولوجي وعلمي ، بطريقة ديموقراطية بعيدة عن أي تدخل ، ومؤثرة في الرأي العام وجماهير المجتمع والدولة .

إن هذه الانتلجانسيا غير موجودة ، رغم أن الشروط المادية ـ الثقافية لولادتها ووجودها متوفرة نسبيا :

ـ تاريخيا ، وجود تراث وتقاليد ثقافية وحضارية غنية كالتراث الجزائري الثقافي ما قبل الاسلامي ، الحضارة العربية ـ الاسلامية ، الثقافة الجزائرية الحديثة ذات التعبير العربي والفرنسي ، وجود علاقات ثقافية ثرية بين المغرب والمشرق العربيين ، التفاعل بين الثقافة الجزائرية والثقافة الفرنسية والأوروبية . .

ـ ماديا واجتماعيا ، توسع القاعدة القارئة و « المستهلكة »

للثقافة نتيجة لتعميم وديموقراطية التعليم ، وجـود مؤسسات ثقـافية وعلمية كالجامعات ومراكز البحث ، وجود مؤسسات الطبع والنشـر والتوزيع والاعلام ، وجود سوق ثقافيـة وطنية وعـربية واجنبيـة . . تعميم اللغة العربية وانتشار وسـائل الاتصـال الجماهيـرية كـالتلفزة والاذاعة والصحف والمجلات . .

ـ طبقيـا وسسيولـوجيا ، وجـود فاعـل تاريخي ـ اجتمـاعي هو الجماهير الجزائرية ، والعربية ، كشعب وأمة ، تملك تاريخها وتراثها النضـالي ضد الاستعمـار ، وتعيش الآن مَسَارات تَشكِّلهـا كفـاعـل تاريخي ملموس وكقوة اجتماعية وطبقية مضادة للاستغلال الاقطاعي والبورجوازي والمشروع الامبريالي ـ الرأسمالي . . لا سيما بعد ظهور الطبقة العاملة الجزائرية كبديل حقيقي وفاعل تـاريخي يملك مشروع تحويل المجتمع في اتجاه بناء الاشتراكية والقضاء على الاستغلال .

أي أن هنـاك صراعـا اجتمـاعيـا وطبقيـا هـو شـرط اسـاسي لعضوية المثقفين والتحاقهم اجتماعيا وإيديولوجيا بالطبقات الكادحة ومشروعها المضاد للرأسمالية والأمبريالية وصراعاتها .

وإذا كان هناك غياب للانتلجانسيا اتفق الجميـع على الاقـرار بـه ، فإنَّ هنـاك ـ عـلى العكس من هـذا تمـامـا ـ مثقفون فـرادى ، معـزولون ، شغيلون ذهنيـون ، يعيدون انتـاج خـطابـات سيـاسيـة وايديولوجية محليـة أو عربيـة أو عالميـة على المستـوى الفكري ، غـير عضويين لأي نسيج فكري ـ اجتماعي ـ يعيشون في دائرتين وبيئتـين ثقافيتين متمايزتين غير متحاورتين ، مختلفتي المراجع الثقافية والتراثية واللغوية ، يقومون عادة بمهام تقنية وظيفية هي اذاعـة ونشر وتعميم

وتكثيف وتوسيع الايديولوجيات السائدة أو نتف من الايديولوجيات والتيارات الفكرية التخطيطية المعارضة ، يمارسون نشاطهم الفكري ـ الثقافي في ظروف اجتماعية ومؤسسات ثقافية تحكمها علاقات وقيم الرداءة والاستيلاب والتبعية وانعدام التفكير الحر والديموقراطية ، والمصلحة والانتهازية ، وسيطَرة المجتمع السياسي والدولة على الحياة الاجتماعية والثقافية والمجتمع المدني . إن ما يوجد في الجزائر هو مثقفون في وضعية متفجرة تاريخيا نتيجة للتدمير الثقافي الاستعماري للبنيات الاجتماعية والثقافية ، ومُتَشظِّية حاضرا ، لعدم وجود نسيج ثقافي ـ فكري متبلور ومنسجم ، ومتفتتة لعدم اكتمال ونضج التركيب الاجتماعي والطبقي في المجتمع الجزائري ، وفاسدة لسيطرة قيم البيروقراطية ، المصلحة الشخصية ، الإستعلاء، الصمت ، الانتهازية ، البزنسة الزبائنية ، التبعية المبنية على قيم الجهوية والتكتل القبلي . . الخ .

الأمر الذي أدى إلى وجود خليط من « المثقفين » :

شغيل مثقف ، مثقف موظف ومقلد ، ميداني ، مزيف ، انتهازي ، بيروقراطي ، تابع ، زبون ، مستلب ، متعلم ، متأدب ، قارىء ، « فاهم » ، « شخصية » « مقلاة ». . ولكن . .

ليس هناك مثقف عضوي ، ليس هناك انتلجانسيا نقدية !

إن رائحة نظرية الفيلسوف الايطالي أ . غرامشي تعبق من هذه الملاحظات الخاصة بعدم وجود ذلك المثقف النقدي . . الذي كان موضوع دعوات كل المتدخلين تقريبا ، الأمر الذي يعكس ضرورة ظهور انتلجانسيا نقدية وعضوية في المجتمع الجزائري .

لماذا اذن لم تظهر حتى الآن هذه الانتلجانسيا النقدية ولم تتشكل رغم وجود المثقفين وتوفر الظروف والشروط المادية والثقافية الموضوعية التي تسمح بالعمل والانتاج الفكري والثقافي ؟

ثمة جمهرة من الاجوبة ، وردت في النقاش ، جوابا على هذا التناقض يمكن تحديدها في حزم وانماط هي :

ـ تاريخية ، عدم وجود تقاليد وتراث ثقافي وحضاري جزائري غني بمضامينه ومؤسساته الثقافية ، نقص الوعي بالاستمرارية الثقافية ومؤشراتها ومعالمها التدمير الاستعماري للبنيات والمؤسسات الثقافية ، تحطم وتفكك « المجتمع المدني » وسيطرة الدولة والمجتمع السياسي على الحياة الاجتماعية ، الاجهزة البيروقراطية الرديئة ، عدم تحكم المثقفين في « الظروف الموضوعية » واستيلابهم لحكم الفئات الموظفة التقنية والتقنوقراطية ، عصرية التنظيمات الثقافية شكلا وتقليديتها مضمونا (سيطرة القيم الشخصية والاقطاعية والمصلحية والذاتية) نقص وغياب الديموقراطية والحوار الفكري .

ـ سسيولوجية ، كعدم تبلور القوى الاجتماعية الجزائرية في طبقات واضحة المصالح والاتجاهات ، وعدم ارتباط المثقف وعضويته لهذه الطبقات التي تملك مشروعا مجتمعيا مستقبليا ، نظرا لعدم توفر الشروط الاجتماعية ، وعدم اعتراف المثقف باهلية ومشروعية الفاعل التاريخي ـ الجماهير الجزائرية الكادحة ـ بسبب تصور المثقفين النخبوي ، وابتعادهم عن الجماهير والناس وعزلتهم ووجود الامية ، وتبعيتهم للمجموعات والكتل السياسية المتحكمة

في السلطة ووجود علاقات زبائنية مصلحية بين الرجل السياسي والمثقف .

ـ اخلاقية ذاتية ، كعدم وجود سلم اخلاقي سليم يحدد مهمة المثقف ووظيفته في المجتمع ، كرجل منتج للمعرفة والعلم والادب والفن ، الأمر الذي أدى إلى وجود مثقفين رديئيين مكررين ، تابعين ، انتهازيين ، غير شرفاء وغير ثوريين ولا نقديين ، بعيدين ومنفصلين عن الحركة الاجتماعية والطبقية ومرتبطين بسلم من القيم الفكرية المثالية المطلقة الثابتة المحافظة الناتجة عن رؤية مقدسة للماضي والتراث أو التابعة لمخططات تفكير جاهزة وخارجية بعيدة عن الواقع الجزائري الملموس وقضاياه واشكالياته وطموحاته .

ـ لغوية ، كالازدواجية اللغوية والثقافية التي أدت إلى نشوء دائرتين أو بيئتين لغويتين ـ فكريتين مرتبطتين بجذور وتراث ومراجع ثقافية مختلفة ومتنوعة ومتناقضة وانعدام ذلك المثقف الحصيلة المزدوج اللغة والثقافة ـ كما هو الحال مثلا في المغرب الاقصى أو تونس ـ الذي يستطيع أن يتمثل ويجمع ثقافته العربية وثقافته الأوروبية في وحدة منسجمة تنطلق من الواقع الجزائري ومتطلباته واسئلته ، وتتفاعل مع الثقافة العربية المعاصرة والثقافة العالمية على اساس الحوار الجدي والنقد البناء والتمثل السليم الواعي .

تلك هي الأفكار القوية واللحظات الاساسية في هذا النقاش . . وتلك هذه الظروف والاسباب التي تكبح عملية تكوين المثقفين الجزائريين لمجموعة اجتماعية منسجمة ومستقلة ذاتيا هي الانتلجانسيا الجزائرية النقدية كوعي كلي وضمير شمولي يضيء

ويقرأ الواقع الوطني والعربي والعالمي وينتج معرفة ورؤ ية (ـــات) للعالم ، تهدف لكشف قانونيات التطور الاجتماعي والاقتصادي والثقافي وتنسيقها نظريا وفكريا ، ووضع امكانيات ومخططات ويوتوبيات تغييره وتثويره .

لكن . . إذا كانت الملاحظات السابقة ، محاولة لحوصلة وتركيب جل افكار واطروحات وفرضيات النقاش القوية . . فإن التفكير والنقد المرتبط بكل عملية تركيب ، يتطلب ايراد بعض الملاحظات النقدية التي يمكن أن تثري هذا الحوار الهام والثري الجدي .

٤ ـ ملاحظات نقدية

١ ـ الانتلجانسيا هي الاطار التنظيمي ـ الاجتماعي الفكري الاعلى للمثقفين

يبدو لي أن صيغة التخيير المؤطرة لسؤال النقاش الاصلي : انتلجانسيا أم مثقفون ؟ صيغة تؤدي إلى كثير من التشويش والغموض والمغالطة .

إن هناك تعارضا ضمنيا يحكم القطبين ، ويغفل عنصر الزمن والتاريخ .

فليس هناك الانتلجانسيا من جهة ، والمثقفين من جهة أخرى ، ذلك أن وجود فئات المثقفين المختلفة هي المرحلة الاولى ، أو المواد الخام لنشوء الانتلجانسيا كمجموعة اجتماعية منسجمة

تنظيميا وعضويا ومستقلة عن السلطة السياسية ، ومرتبطة اساساً بمجمل العلاقات والمؤسسات المجتمعية التي تتواجد خارج الدولة كمكان لسلطة الرجل السياسي . إن وجود المثقفين وانواعهم يشكل اللحظة الاولى في مسار تاريخي ، تنظيمي وعضوي وفكري وديموقراطي ونضالي ايضا . . يؤدي إلى شكل اعلى ونوعي لنشاط ووجود وانتاج المثقف وعلاقاته . . هذا الشكل التنظيمي ـ الاجتماعي الفكري هو الانتلجانسيا ، كمجموعة اجتماعية منظمة ، منتجة للثقافة ، ومبدعة للقيم العلمية والادبية والفنية والايديولوجية . . تبعا لهذا يمكن القول أن :

الانتلجانسيا هي كلية أو مجموع المثقفين كمنتجين للقيم الثقافية (علمية وفكرية وأدبية وفنية) والقيم الايديولوجية (رؤى ويوتوبيات ومخططات تفكير وموديلات سلوك ومشروعات تغيير . .) وتجسدات وتحققات هذه العلاقات في بنيات مادية ـ ثقافية ومؤسسات ايديولوجية (مراكز بحث علمي ، جامعات ، مجلات ودور نشر ، اتحادات وجمعيات ثقافية ، ومؤسسات ثقافية وايديولوجية كالصحافة والوسائل السمعية البصرية . . أي ما يمكن تسميته بـ « بنية تحتية » ثقافية أو « صناعة ثقافية » .

وتعريف الانتلجانسيا كعلاقات عضوية وتنظيمية بين المثقفين وانواعهم يتطلب تحليل هذه العلاقات وعقدها وارتباطاتها وتمفصلاتها مع مجمل العلاقات الاجتماعية الاخرى وبنياتها كالدولة والمجتمع المدني والقوى والطبقات الاجتماعية .

لنبدأ بالمثقف . من هو المثقف ؟

٢ ـ المثقف هو منتج القيم الثقافية

التعريف بالسلب يقول أن المثقف ليس هو الخبير ، والتقني والشغيل الذهني ، والموظف المتعلم ، والانسان الذي يقرأ ويكتب ، والذي يملك معارف وافكار حصل عليها من تكوينه المدرسي أو الجامعي وليس هو الاستاذ أو الدكتور أو المعلم أو « المثقف الموزع » كما يسميه غرامشي أو موظف « البنية الفوقية » ، السياسي ، الحقوقي ، أو وكيل التنمية أو منفذ وناشر الايديولوجيات . بهذا المعنى يعتبر المثقفون قلة أو نخبة . ليس في هذا أي تصور نخبوي أو فئوي انعزالي ، فبذلك المعنى ، يصبح كل الناس مثقفين لأنهم يملكون معارف ورؤى ومعلومات . . هكذا يصبح الفلاح مثقفاً والمثقف فلاحا وتنتصر النزعة الفلكلوروية ، ويختلط الحابل والنابل باسم ديماغوجية وغوغائية لعبت كثيرا في عملية خلط الاوراق باسم شعبوية تلغي العلم .

إن المثقف هو منتج الثقافة ومبدع القيم الثقافية ، وعندما اقول مبدع ومنتج الثقافة ، فإن مكانته تتحدد في عملية انتاجه للخيرات الفكرية والقيم العلمية والادبية والفنية . المثقف هو المكانة أو الوضع الذي يصله الشغيل الذهني عندما ينتقل من وضعية موزع وناشر القيم الثقافية المتنوعة إلى وضعية المنتج الفكري الذي تمثل وهضم نقديا قيم ثقافة مجتمعه وعصره وتراثه ، وانتج حقائق وقيما جديدة في الفكر والفن والعلم والادب . . هكذا يعتبر الشاعر الشعبي مثقفا ، وهكذا يمكن أن يصبح المعلم البسيط كشغيل ذهني موزع لمعارف وخبرات التراث والعصر . مثقفا ، عندما تصل

قدراته وامكانياته إلى لحظة أو مرتبة انتاج قيم ومخططات وافكار وموديلات تربوية بيداغوجية معينة وهكذا ، يمكن أن يصبح العامل التقني مثقفا حينما ينتقل من مرحلة تطبيق التقنيات والمعارف العلمية إلى مرحلة انتاج نظريات وكيفيات وقيم علمية تكنولوجية ، وهكذا ـ ايضا ، يمكن أن يتحول الاستاذ الجامعي في العلوم الاجتماعية إلى منظر أو فيلسوف أو سسيولوجي في اللحظة التي ينتج فيها معارف وخبرات وحقائق جديدة تغني الثقافة الانسانية .

إن المثقف هو ذلك الشخص الباحث ، المنتج للقيم الثقافية ، المضيف لرصيد الثقافة الانسانية في مختلف تنوعاتها .

تبقى قضيتان :

ـ علاقة المثقف وتأثيراته في المجتمع وآثار عمله وانتاجه على الصعيد الايديولوجي والاجتماعي ـ الطبقي .

ـ ارتباطاته وعلاقاته مع السلطة أو السلطات .

٣ ـ المثقف الجزائري . . ولادة عسيرة

لنقل أولا أن التاريخ المتنوع للمثقفين الجزائريين المعاصرين ، كفئة انتجت داخل دائرتين ثقافيتين هما الثقافة الفرنسية والعربية لعب دورا كبيرا في تنوع مشارب ومراجع هذه الفئة . . وتشظيها ايضا .

تفكك المجتمع الجزائري وكثافة التدمير الاستعماري للمؤسسات والعلاقات الثقافية ، وتقطع الاستمرارية الثقافة

والتثاقف والعزل والتهميش الثقافي والقمع وتعميم الامية هي اللحمة التي أدت إلى وجود نتف من المثقفين الجزائريين غير مرتبطة عضويا وتنظيما وفكريا ، فاضافة إلى الحاجز اللغوي هناك اختلافات كبيرة على مستوى التكوين والمراجع الثقافية ـ الايديولوجية والارتباطات الاجتماعية والطبقية .

هكذا نلاحظ مثلا مجموعات وافْواجا من المثقفين الجزائريين على شكل مجموعات مغلقة ، أو قطع غيار مشتتة لانتلجانسيا جزائرية في حاجة إلى التجمع والتشكل كمجموعة موحدة ومتنوعة ومتناقضة ايضا .

نجد علاقات معينة ، ثقافية وأيديولوجية ذات ارتباطات اجتماعية محددة تتشكل حولها « طوائف » من المثقفين ، في كتل ، تملك كل كتلة خصائصها النوعية وسماتها الفكرية ومؤسساتها المادية ـ الثقافية .

الأنتلجانسيا الاصلاحية الدينية ممثلة في جمعية العلماء المسلمين تظهر كمجموعة من المثقفين ينطرحون في اطار استمرارية ثقافية هي الحضارة العربية الاسلامية والاصول الاولى الدينية وتعبيراتها النهضوية : الحركة السلفية الاصلاحية في الشرق العربي كمرجع ثقافي ـ ايديولوجي ، والبورجوازية التقليدية كقوى مادية واجتماعية ملموسة ، كما يؤكد الاستاذ « مصطفى الاشرف » . داخل هذه الانتلجانسيا الاصلاحية السلفية تكون وتطور انواع من المثقفين : الادباء مثلا الذين أسسوا واعادوا تصوير وانتاج قيم الاصلاح الديني والوطني وقيمه الفكرية والسلوكية في اشكال ادبية مختلفة ومتنوعة

كالقصة والشعر والمقالة . . والصحافيون والمؤرخون الاصلاحيون الذين ثمنوا ومجدوا التاريخ والتراث والحضارة العربية ـ الاسلامية لمواجهة الايديولوجيا والتاريخ الكولونيالي ، منتجين قيما ايديولوجية وطنية مضادة ومعبرين عن الاستمرارية التاريخية للشعب والثقافة الجزائرية والعربية . .

وهذا عبر بنيات ومؤسسات ثقافية منوعة كالنوادي الثقافية ، والحركة الكشفية ، والجمعيات الفنية ، والمسرحية ، والمجلات الدينية ، والادبية ، والصحفية . . الخ .

بالمقابل من هذا وُجِد المثقفون الجزائريون الذين تكونوا في اطار استمرارية ثقافية شعبية ـ فلكلورية وشفهية جزائرية ، وثقافة أوروبية كونية ناتجة بالاساس عن تكونهم في المدرسة الفرنسية وتياراتها من ليبرالية وماركسية .

واستطاعوا أن يحوصلوا مراجعهم الثقافية وجذورهم هذه في صياغات لا تخلو من التناقض والمعاناة والاحساس بالغربة والنفي والذنب والاستيلاب .

إن ما يوجد حقيقة ، هو دائرتين ثقافيتين كبيرتين ، تحددهما اللغة ووسيلة التعبير ، هما دائرة المثقفين الجزائريين ذوي التعبير الفرنسي ، ودائرة المثقفين الجزائريين ذوي التعبير العربي ، هذا اضافة لعدم وجود علاقات عضوية وفكرية بين انواع مثقفي كل دائرة نظرا لاسباب كثيرة منها نقص ولا ديموقراطية المؤسسات والبنيات الثقافية ورداءة « المثقفين » المسيرين لها ، إن الحاجز اللغوي ، يلعب دورا كابحا في ظهور انتلجانسيا جزائرية موحدة .

الحل في نظري ، في انتظار اجل مسمى ، هو ظهور نوع جديد من المثقفين ، المثقف الحصيلة ، ذي اللغتين ، المثقف الذي يعيش توترات الازدواجية اللغوية من أجل تأسيس بعديه الاساسيين ، وطنيته بمفهومها الثقافي المناقض لكل شوفينية ونزعة اثنية وعرقية ، أي كتجسيد لانغراسه وتغلغله في اعماق واغوار الواقع الثقافي الوطني ، وتصميمه على المشاركة في الكونية العالمية المعاصرة ، بنقل خصوصيته وايجاد القواسم المشتركة بينه وبين العالم ، فكرا وابداعا ولغة ، كبعد ثان .

إن كل اشكالية استعادة اللغة وثقافتها ووعيها ولا وعيها ، داخل التراث أو الحداثة تجد مبررها عند هذا المثقف في كونه يطمح بتجاوز « الاعتداء التاريخي الاستعماري » ويلغي « نظام المثقف المستعمَر » (بفتح الميم) الذي عانى منه في جزائر الاستيطان والمحو المنظم لعناصر الهوية الوطنية . تجاوز ووعي التاريخ يحقق الغاء التوترات واقامة علاقات متوازنة ونشيطة مع طرق التعبير ، وتراثات الثقافات الاخرى . لنؤكد إذن ضرورة الغاء العلاقة الاستعمارية وبقائها في الميدان اللغوي ـ الثقافي من أجل تأسيس الوحدة المتنوعة ، المتناقضة لمكانة وهوية هذا المثقف ـ الحصيلة الذي طال انتظاره . . تماما كالسيد « غودو » الذي يأتي ولا يأتي !

٤ ـ المثقف والسلطة . . والخبزة

عندما نقول السلطة ، فإن المقصود هنا ليس الدولة فقط ، أي المجتمع السياسي وأداته التنظيمية القهرية ، نعود مرة أخرى

لغـرامشي ، ونورد فكـرة أساسية له تقـول أن كـل مجمـوعـة أو فئـة اجتماعية تظهر على مسرح الانتاج المادي تفرز مثقفيها العضـويين ، الـذين يقومـون بـوظيفـة مـزدوجـة هي تحقيق الهيمنـة والسيـطرة في المجتمع المدني والمجتمع السياسي أي يقـومون بتحقيق وظيفـة تقنية اقتصـادية تتجسـد في تسيير وانتـاج مخططات ومـوديـلات عـلاقـات الانتاج المادية والحفاظ عليها وتأييدها ، وتكريسها واعادة انتاجهـا ، بهـدف ادامة المصـالـح المـاديـة والتـاريخيـة للمجمـوعـة أو الـطبقـة الاجتماعية التي ينتمون اليها عضويا وايديولوجيا . .

وكذلك وظيفـة الهيمنة عـلى المجتمع المـدني وقواه ومؤسسـاته الثقافية والفكرية والاجتماعية عن طريق انتاج ووضـع ايديـولوجيـة ورؤيـة الطبقـة السائـدة لنفسهـا والآخـرين بهـدف تحقيق الاجمـاع والقبـول ، قبـول الـطبقـات والمجمـوعـات المسـودة بـالمشـروع الاجتمـاعي ـ التـاريخي كمشـروع مجتمعي شمـولي يحقق اهـداف الجميع .

هنـا يلعب المثقف دور الاسمنت، دوراً يهدف لـربط القـوى الاجتماعية المادية بالاشكال الايـديولـوجية والثقـافية ، وتشكيـل ما يسميـه « غرامشي » بـالكتلة التاريخيـة ، أي ذلك المجمـوع المـادي الايديولوجي الذي يسيّر المجتمع ويضمن تـطوره ومساره في مـرحلة تاريخية محددة . ما واقع الحال في الجزائر . . ؟

لا نـدعي أننـا سنقـوم ببحث علمي حـول وضعيـة المثقفـين الجزائريـين ، سنورد بعض المـلاحظات والافكـار المستقاة من تـأمل

تجربة ذاتية في علاقاتها مع الآخرين ، وهي تجربة المثقفين الجزائريين ذوي اللغة العربية خصوصا الاجيال الجديدة منهم .

* * *

يتكلم الكثير من « المثقفين » حاليا بنبرة يائسة نسبيا ، ويطرحون سؤ الا مصيريا حول انفسهم وعلاقاتهم وكينونتهم :

ماذا يعني أن يكون المرء مثقفا هنا في هذا البلد ، وفي هذا العقد ؟

يبدو لي ـ وأنا هنا ، أتأمل تجربتي وتجربة زملائي من أدباء وجامعيين وكتابا وصحافيين ـ أن « المثقف » عندنا ليس وليد اختيار ذاتي واعي ، أو تملك معين لمصير أو وظيفة فكرية بقدر ما هو بحث واستعمال عن ولمهنة ووضعية كتب عليها القدر أو المجتمع أو الظروف ـ لا اعرف ـ أن تكون وضعية تتطلب عملا فكريا أو ابداعيا . إن المثقف لم يختر أن يكون كذلك في بلادنا ، إنه من انتاج ظروف غاية في التعقد والتداخل والاعتباطية والعشوائية كالاصل الطبقي والاجتماعي ، الوضع المهني والعائلي ، التوجيه المدرسي ، طابع اللغة ونوعيتها ، الميل العفوي اللاواعي لمهنة أو اختصاص ، عدم وجود وسيلة اخرى للعيش ـ خصوصا بالنسبة لمثقفي العربية ـ ما عدا الفروع الادبية والتعليم ، نظرا لأن اللغة العربية لم تصبح بعد لغة الطب والهندسة والاعلام الآلي والتجارة والتخصص التقني العالي ، والممارسات المهنية الواسعة ارتبط ، اذن ، المتعلمون ذوو اللغة العربية بالعربية والتعليم والأدب . .

والكتابة كمورد للرزق ووسيلة للصعود الاجتماعي وتكوين شخصية اجتماعية معينة .

هذا الجذر البسيكو ـ اجتماعي لتشكلهم كمجموعة يفسر كثير من التوترات والنزاعات التي تعرفها الثقافة الجزائرية المعاصرة ، رغم أنه ليس كافيا ، كشرط يفسر الاتجاهات والتطورات والتمظهرات اللاحقة لهذا النمط من رجالات « الثقافة والفكر والادب » .

لنتأمل قليلا تطور هذا النوع من المثقفين :

إنهم يكونون عصبات أو طوائف مغلقة نسبيا على المستوى المعاشي ـ اليومي ، أو العلاقات الحياتية والاجتماعية ، أو المجموعات المرجعية ، أو طبيعة المداخيل الاقتصادية والحرفية والمهنية . اغلبهم وصل إلى « دنيا الأدب » أو « الكتابة » أو « رئاسات تحرير الصحف » أو الصفحات الثقافية أو مراكز المسؤولية الثقافية ، هكذا بدون أية عملية اختيار مسبقة لوضع يصبح بموجبه الفرد مثقفا ، أي انسانا يهدف أساسا لابداع فكر والتعبير عنه وتنميته ونشره وتأسيس وعي ما بضرورته ، بدون أية ارتباطات اخرى كارضاء جهة أو انتظار جزاء أو مباركة من مركز أو سلطة كائنة ما كانت . كل تبعية الثقافي ومنتجه المثقف للسياسي ومنفذه رجل السياسة والجهاز توجد هنا . .

لكن ما دام المثقف « يفبرك » رؤية أو يسرق « شظايا قيم سائدة» في توفيقية وتلفيقية مُحَدَّثة ، أو يحوصل « توصيات وتوجيهات » من هنا وهناك ، ويعجن كل ذلك في خليط من

الموافقات والنظرات السائدة المنوعة الخطابات ، المطعمة بـ « توابل » زبائنية وتبعية لمركز أو وضع اجتماعي وسياسي . . فسيكون اشبه بذلك الحانوتي العجوُز الذي يكسر رأسه بحسابات متاهية ، لا مخْرج منها :

« هل المرحلة تقبل هذه الافكار ؟ هل الجهة أو المسؤول الفلاني يرضى على هذه الفقرة ؟ هل هذه الصورة الشعرية متفقة مع توصية المؤسسة أو النص الكبير الايديولوجي ؟ هل من مصلحتي أن أقول كل ما أفكر فيه ؟ وبهذه الصيغة ، وفي هذا الشكل ؟ لا ريب سيلصقون لي بطاقات معينة على ظهري وسأكون مغفلا ، إن جاريت وعيي وضميري . . الخ ؟

إن المثقف النقدي والحقيقي ، الذي يؤسس « لاءه » بايجابية واخلاقية الحقيقة ، يقول إلى الجحيم هذه الحسابات المركانتيلية ؟

لنقلها صراحة . إن هناك زلازل مرعبة وشرسة وسجون كبيرة داخل كل كتاب ومثقفي بلادنا ومنهم المعربين . فجرس الرقابة الذاتية وازرارها الخارجية يرن بعد كل فقرة من نصوصهم الثقافية .

وما دام المثقف قد سجن نفسه بنفسه ، ولم يتعلم كيف يكافح ضد قضبان سجنه وذاته فمن الجنون أن يستنجد بطرف آخر . إن الحرية وحرية الكتابة أو كتابة الحرية عملية داخلية تفترض بدءا ارادة التعبير وتسجيل الكلمة في التاريخ .

لنحلل اكثر قليلا .

جاء اغلب مثقفي العربية من الريف ، أو انحدروا على الأقل

من عائلات فلاحية ، استقرت في المدن بعد حملات الهجرة الريفية نحو المناطق « والمتروبولات الصناعية والثقافية » ، الجزائر العاصمة وهران ، قسنطينة ، عنابة ، فهنا يتواجد اغلب « مثقفي البلد » ، وبعد الاستقلال وتطبيْق ديموقراطية التعليم والتكوين ، وتحسن مستوى المعيشة العام تحت تأثير التنمية والتصنيع وتوفير الشغل والتوسع العمراني. . . وجدت اعداد هائلة من المتعلمين نفسها ، أمام وضعية غريبة : قيام الدولة الوطنية بتصنيع وتنمية انطلاقا من اختيارات تكنولوجية وعلمية ، لم تصبح فيها اللغة العربية كأداة ، كفيلة وقادرة على تسيير وتطبيق النموذج التنموي من جهة وتعريب « الانسانيات والأدب والتعليم » كقطاع سهل نسبيا ، ويتوافق مع امكانيات عربية « تراثية » لم تتجذر الا بطريقة خجولة وهشة مع منجزات الثورة العلمية المعاصرة وعواصفها . هكذا اذن ، ظهر شعور بلا جدوى تكوين الاطارات بالعربية ، نظرا لأن لغة الحياة والعمل والمسؤولية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية تسير بلغة اخرى . فوجد المتعلمون المعربون انفسهم على الهامش ، وتحول الكثير منهم إلى اماكن عمل بعيدة عن اختصاصهم ، وربما طموحاتهم . فقد عرفت جغرافيين يشتغلون صحافيين ، واداريين يحتلون مناصب مسؤولية ثقافية ، وحقوقيين يهتمون بالكتابة الادبية والفنية . وهنا اوضح إشكالا قد يجر اليه سياق كلامي ، وهو أن الشهادة والخبرة لا تؤسس مثقفا ، فكثير من حملة « الليسانس » يجهلون ابجديات والفباء التعبير والحوار والثقافة . . بل حتى اللغة ، لدرجة أنهم لم يقرأوا في حياتهم كتابا واحدا . ما أريد قوله هنا ، أن جل ما اصطلح على تسميته بـ « المثقفين » يعُومون في صحراء

ثقافية ، لا تملك أي مقاييس للنقاش ، ولا أي ضوابط للتدخلات الفكرية ، هكذا شاهدنا مثلا ، نموذجا متعلما ، ذا شهرة لا بأس بها ، يتدخل ويتحاور في مجالات تمتد من الفلسفة ، إلى شعر نزار قباني ، إلى أمراض الاسنان والاسهال ، مرورا بانواء الطبيعة وقوانين الزلازل . . ولا أعرف ماذا أيضا . وعرفنا كتابا وفنانيين لم يبدعوا الا قصاصات صحف ، في اتحادات ثقافية . . ولهم كل الحق في الادلاء باصواتهم ومنافسة الذين اعموا عيونهم بين الاوراق والكتب ، وابدعوا في معاناة كثيفة ، ما شكل تجديدا في الثقافة الجزائرية .

إن الرداءة وغياب حسن وإتقان العمل تتجسد في كل ما نراه ونسمعه ونقرأه (اكيد أن هناك استثناءات . . ولكن الاستثناء يؤكد القاعدة !) جريدة تستعمل الاوفست ، أي أرقى ما وصلت اليه فنون الطباعة ، ولكن صفحتها الاولى تقوم بمهمة ، هي تشويش الصياغات العربية الصحيحة . .. مركب طباعي يستعمل التقنيات الطليعية في الطباعة والتصفيف والسحب والنشر ، ويعتبر اكبر « مركب طباعة في افريقيا » طاقته النظرية هي انتاج اكثر من سبعة ملايين ونصف نسخة من المجلات والمطبوعات ، وسبع ملايين نسخة من الكتب . . ولكن مخطوطات كتب ادباء وكتاب تنام فوق الرفوف مدة تتعدى بعض المرات أربع سنوات . . الخ .

ما معنى هذا في بداية أو نهاية التحليل ؟ موت مفجع وصامت للطاقة ، وتبددها في غياهيب المتاهات التقنية . إن الصناعة الثقافية بدون انتاج هي ركام من الآلات التي لا طائل تحتها ولا جدوى

منهـا . ثم . . هل يعـرف القراء في الجـزائر أو الـوطن العـربي مجلة جزائرية واحدة تصدر في وقتها . . وقبل هذا مـا هي هذه المجـلات التي تصدر وتقول عن نفسها أنها مطبـوعة فكـرية وابـداعية ، ادعـو كل من يشتدق بشوفينية ، أن يقارن قليلا مستوى هذه « الحوليات » مـع مستوى مجـلات عـربيـة واجنبية يمـولها افـراد معـدودون عـلى اصابع اليد !

إن العمــل الثقـافي يتــطلب التـواضــع والنقـد والاصــالـة والابداعية ، والتسيير الدائم الفعـال وحس المسؤ ولية ،ونبـذ الثرثـرة والديماغوجية والشعارية وقيم أخرى ، لا تتوفر للاسف في جـو ثقافي أقل ما يوصف به هو كونه ، جوا مفبركا ، غـير أصيل ولا مبـدع ، يسوده جهل مثلث ركنه الأول جهل بالتراث والاستمـرارية الثقـافية الوطنية ، وجهل بالثقافة العربية الحديثة ومنجزات الابداعية العربية الحداثية ، كزاوية ثانية ، وجـهل اخير ، وهـو الافدح والمـأساوي ، بمنجزات العصرية والكونية الثقافية الحالية علوما وفكرا وابداعا .

مـا هي انعكـاســات وتـأثيــرات هـذه النتف من الــظروف والسيـاقـات عـلى الكتـابـة والابـداع والعمـل الثقـافي ونشــاطـات « المثقفين » في بلادنا ؟

قلت سابقا ، أن الهجرة الريفية والنزوح الـريفي ، حملت إلى الحواضر والمـدن جيلا . من المتعلمـين ذا نمط حياة تقليـدي ، إن لم أقل ذا نزعة محافظة ومقلدة ، ونظرا لكون المتعلمين المعـربين فقـراء وذوي ذاكرة ثقافيـة فلكلورية ـ فـلاحية ، نتيجـة بؤس الارياف في الفترة الاستعمارية ، وتقوقع الايديولوجية الفلاحيـة في « غيتو » من

القيم والسلوكات والمخططات الاخلاقية والفلسفية التي لا تتماشى مع قيم الحياة الحضرية ، فإن الحياة الاجتماعية أو جو الثقافة الاجتماعية ، اصبح جوا ريفيا ، تسوده قيم العلاقات العشائرية ـ التكتلية . ويعتبر غياب المرأة الجزائرية عن الجو والعمل الثقافي ، خصوصا في دائرة « الانتلجانسيا المعربة» دليلا قاطعا على عدم تبلور التبادلات وتغير القيم والنظرات .

هكذا اذن تحولت العربية إلى سلاح من أجل « الخبز » ، وظهرت أيضا في قطاع المثقفين ذوي التعبير الفرنسي نزعة « خبز يسم » ، ورغم مشروعية بحث المتعلم عن « خبزته » و « معاشه » بوسيلة الثقافة أو اللغة ، إلا أن هذا البحث المشروع اصبح رؤ ية للعالم ونزعة سلوكية وايديولوجية ملموسة ، كان من نتائجها ، وصول الكثير من اشباه المتعلمين والمثقفين إلى مناصب وامجاد وشهرة ومكانات ووضعيات ، لا تعود لابداعاتهم الشخصية أو انتاجاتهم الفكرية والثقافية ، بقدر ما تعود إلى « وضعهم » كأدوات ووصلات و « رجال » شخصيات ومراكز قوى ضاغطة ومجموعات « تكتلية » معقدة التكوين والعلاقات . إنهم يتحكمون في شرايين العمل والانتاج والتوزيع الثقافي بناء على علاقات الزبائنية والعشائرية والتكتيلة والشعارية السياسية الفجة .

وقد ادى استمرار العلاقات الريفية ، ومزيجها العجيب ذاك ، إلى اختلاط المفاهيم وتشوش الدلالات وانقلاب الاوضاع والمكانات . . هكذا اصبح كل متعلم مثقفا ، وكل من يدندن لحنا مطربا ، وكل من يرصف بيتين من « الكلام الموزون المقفى »

شـاعرا ، وكـل من يهجي الابجديـة كاتبـا ، وكل من يحفظ عنـوانا وشعارين سياسيين وايديولوجيين مفكرا ، وكل من يعرف « آيتـين » مثقفا اسلاميا .

إن مسخرة بهذا الحجم والحبك ، أدت إلى تأسيس سلطة (أ ت) ثقافية واجتماعية تنتمي لتلك الاجـواء الاسطوريـة ـ التسلطية التي يعرف الاديب الكولومبي « غارسيا ماركيز » صياغتهـا وتعريتهـا بطريقة جيدة :

ظهـور « مشيخات واقـطاعيات وابـويـات » في مختلف انـواع ومجالات الانتاج الثقافي ، في التاريخ الفكر ، والفلسفة ، الروايـة ، الشعر ، النقد ، السينما ، المسرح ، المناصب الثقافية . .

وهذه « المشيخات » اشبـه بآلهـة مخفية ، وسلطات مـرجعية ـ ادارية ترسل « توجيهاتها وتـوصياتهـا وقراراتهـا » بعيدا عن أي ردود ثقـافية نقـدية وفكـرية لمثقفـين ـ لا ريب أنهم موجـودون ـ يعتـزون بسلطة واحـدة وحيدة هي سلطة الفكـر والبحث عن الحقيقة والقيم الايجابية والنقدية بعيدا عن أي مغازلات زائفة ومنافقة .

ويعتبـر هذا النـوع من السلطات الثقافيـة ، اخـطر واشـرس أنواع السلطة والسلطنة ، لأنه يهاجم ، كسرطان ، ذات الكـاتب ، بتحجيم كلمته وفكره بطريقة انعكاسية واشتراطية بافلوفية . . هكذا يندفع الكاتب لممارسة قمعه الرمزي عـلى التعبير والنص والـرؤ ية ، فيكتب اشكـالا ومضـامـين وافكـارا ومـوضـوعــات بعيـدا عن أي اشكاليات نقدية اساسية ، ويـطرحها ضمن ذلـك « الاجماع الثقـافي السـائد » أو فلكلور الثقـافة ، أو يحـاول تمطيـطها لتصـل إلى حدود

الدائرة الابداعية والتعبيرية المحددة ثقافيا واجتماعيا . ما ينتجه أو على الاصح ما يعيد انتاجه هو نتف من الثقافة السائدة ، تراثيا وَعصريا ، بدون ابداعية أو اضافة ايجابية ونقدية . إن حالة الشعر والفلسفة والفكر في الجزائر خير نموذج للتكرار والانتحال والجعجعة ، كما أن المحرمات المعروفة في صالونات المثقفين النادرة تزدهر خارج النص والكتابة ، وتشكل مواضيع للنقاش السري جدّاً . فالحوار والنقاش الصحي المتنوع والمختلف والمتناقض غائب في جل مؤسسات المجتمع الثقافية . ما هناك هو كلمة واحدة تقال بمئات الصيغ وفي مئات المناسبات .

هي ظاهرة تشير لتنميط وتوحيد « المجتمع المدني » في الجزائر واختزاله إلى مردِّد لاصداء وتوجيهات المجتمع السياسي .

على المستوى الاجتماعي ، ينظر الناس إلى « المثقف » على اساس أنه «عارف وعالم» و«شخصية»، ويكنون له احتراما، وربما تقديسا ، كذلك الذي يحسون به تجاه المداح أو الشاعر أو الفقيه ، فينادونه بـ « السي » أي السيد ، لأنهم يحدسون سلطته الايجابية : فهم وتغيير المجتمع انطلاقا من نقد مساره وتوجيه اهدافه . . ولكن عندما يكتشفون أن سلطته لا تخوله أية مشروعية اجتماعية يفهمون أن القيم السائدة هي قيم متوجسة خيفة من كل ما هو ثقافة أو نقد أو تعبير .

أما الفئات المحظوظة واصناف « البُروقراطيين » ـ كما سماهم احد شعراء الفرنسية ـ فإنهم يخفون احتقارا داخليا لكل ما هو فكر

ثري وعال ـ رغم الجمل البراقة عن أهمية الثقافة والابداع وَالأدب والفن . هناك تقسيم ما داخل العلاقات بالثقافة :

الثقافة الوطنية ، أي المنتجة من طرف الجزائريين للشعب . وهي بالاساس في نظرهم ذلك التراث الفلكوري أو بقاياه المتجلطة التي تمتاز بالقدامة والعتاقة ، رغم أنها ما زالت صالحة للاستهلاك الثقافي الضروري . أما « الثقافة » الراقية فهي تلك الثقافة الغربية، الملفوفة في النزعات الاستهلاكية والمتعوية ، الملونة بهالات الجديد والغريب والسحري . ثقافة التلفزة والفيلم السائد في أوروبا الرأسمالية . أما منجزات الكونية الثقافية الغربية والعالمية الجادة والانسانية فإن اسطوانة « الغزو الثقافي » كفيلة بعدم ادخالها والتفتح عليها .

في عشرين سنة اصبحت القيم الثقافية تسير على رأسها ، عوض قيم الابداع والعمل والصرامة الفكرية التي تدعو اليها كل مواثيق الثورة الجزائرية ، اصبح بنزين العملية الاجتماعية والثقافية هو ذلك الريع السحري ، ريع البترول وريع الوضعيات والخدماء والعلاقات المعارفية الزبائنية .

اذن أين الاجابة على سؤ ال معنى وجود مثقف ؟

المشكلة ليست في نقص التوجيهات السياسية الايجابية ، ولا في انعدام مبادىء مشروع ثقافي جزائري اصيل ونقدي وعصري ، فالثقافة لم تتأسس في يوم أو تاريخ ما ، بمناشير وزارية أو توصيات مهما كانت ايجابيتها وفائدتها ، لأنها ينبوع من ينابيع المجتمع الطبيعية فهي تعيش وتتوالد داخل الاجواء الحياتية والاجتماعية . إنها جو

وطقس اجتماعي ـ معيشي وإذا أراد المثقفون أن يكـونوا ويؤسسـوا وظيفة أو مشروعية لهم . . فليفكروا ويسلكـوا مسلك ذلك الـرجل الاسطوري الذي حكمت عليه الآلهة بالمعاناة الابديـة والابداعيـة ، لأنه اقترف حب الحقيقة وقولها ونشرها والدفاع عنها . . . بعيداً عن أي سلطان أو أمير .

قائمة لبعض المواد والمفاهيم والمصطلحات المستعملة

ـ مراجع ، جذور ، مراسي ثقافية	-Ancrage culturel
ـ ارستوقراطية تجارية خضرية	-Aristocratie commercante des villes
ـ رقابة ذاتية	- Autocensure
ـ استقلالية ايديولوجية ذاتية	-Autonomie idéologique
ـ استيلاب	- Alienation
ـ بيروقراطية ـ مكتبية	-Bureaucratie
ـ بَقْرَاطة ، تَبَقْرُط	- Bureaucratisation
ـ ثقافة	-Culture
ـ انقسام ، انفلاق لغوي	-Clivage linguistique
ـ تصوّر العالم	-Conception du monde
ـ شريحة مثقفة	-Couche intéllectuelle

استعملنا في ترجمة هذه النصوص كتاب : م . طالب ، ع . الكريم العايدي ، **معجم اقتصادي ـ اجتماعي (فرنسي ـ عربي)** ، دفاتر م.ج.و ع.أ. جامعة وهران ، ١٩٨٢ ، رقم ١١ . المفاهيم والمصطلحات التي وجدناها ، اخذناها كما هي ، أو اجتهدنا في بعضها ، واشتققنا مفاهيم اخرى . وهي مرتبة ، هنا ، وفق الابجدية الفرنسية . (ع.ب) .

- Courants idéologiques	ـ تيارات ايديولوجية
-Constante	ـ ثابِتة
-Caste	ـ طائفة
-Conditions objiectives	ـ ظروف موضوعية
Classes Sociales instrumentales	ـ طبقات اجتماعية أَدَاتِيَة
-Discours	ـ خطاب
-Discours intellectuel cohérent	ـ خطاب فكري منسجم
-Depassement de la mediocritie	ـ تجاوز الرداءة
-Democratie réelle antimonolhitique	ـ ديموقراطية حقيقية تَعْدَّدية
-Dichotomie	ـ انشطار ، انقسام لغوي
-Dominance	ـ سيطرة
-Elite	ـ نُخبة
-Elite de la nation	ـ نخبة الامة
-Etat national	ـ دولة وطنية
-Enjeu	ـ قصب السبق ، المَلْعُوب
-Forces sociales homogénes et autonomes	ـ قوى اجتماعية، منسجمة ومستقلة ذاتيا
-Fonctionnarisation	ـ توظيف
-Groupe social structuré et cimenté	ـ مجموعة اجتماعية مُتَبَنْيِنَة ومُسَمْنَتَة
-Heritage intellecturel et culturel	ـ تراث فكري وثقافي
-Hégémonie	ـ هيمنة

-Homogéneité	ـ تجانس ـ تجانسية ـ انسجامية
-Intellectuel organique	ـ مثقف عضوي
-Traditionnel	ـ مثقف تقليدي
-Fonctionnaire	ـ مثقف موظّف
-Traditionnalisant	ـ موظف مُقلِّد
-Praticien	ـ مثقف ميدَاني
-Attentiste	ـ مثقف انتظَاري
-Opportuniste	ـ مثقف انتهازي
-Honnête	ـ مثقف شريف
-Citadin	ـ مثقف حضري ، مديني
-Rural	ـ مثقف ريفي
-Non productif	ـ مثقف غير منتج
-Revolutionnaire	ـ مثقف ثوري
-Intermédiaire	ـ وسيط
-Intégration	ـ اندماج ـ ادماج
-Justification épistémologique	ـ انتلجانسيا
-Ligitimité	تبرير مَعْرِفي مشروعية
-Ligitimation	ـ تحقيق المشروعية
-Légalité	ـ شرعية
-Léttré	ـ مُتَعَلِّم
- **Langue** de bois»	ـ « لغة مَتَخَشِّبَة »
-Médiation active	ـ وساطة نشيطة

-Moi national	ـ أنا وطنية
-Mediocrétie	ـ رداءة
-Médiocratie	ـ حكم الرداءة ـ الميديوقراطية
Médiocratisation	ـ تحقيق الرداءة
-Monopolet d'etat	ـ احتكار الدولة
-Modéles (s)	ـ موديل ، نموذج ، منـوال
-Notion aristocratique	ـ مقولة ارستوقراطية
-Politique	ـ سياسة
-Politisation	ـ تَسْيِيس و ـ تَسَيُّس
-Projet critique	ـ مشروع نقدي
-Pensée libérale	ـ فكر ليبرالي
-Fondametaliste	ـ فكر أُصُولِي
-Positivisme	ـ وضعية
-Pratique sociale	ـ ممارسة اجتماعية
-Questionnement	ـ مُسَاءَلة
-Reflextion Théorique	ـ تفكير نظري
-Rituel idéologique du temps	ـ طقس ، جو الوقت الأيديـولوجي
-Référentiel	ـ مرجع
-Stratification sociale	ـ تنضِيد أو تَرَاتُب اجتماعي
-Sainte famille (La)	ـ « العائلة المقدسة »
-Sujet historique	ـ الفَاعِل التاريخي
-Société politique	ـ المجتمع السياسي
-Sociéte civile	ـ المجتمع المَدني

-Sphére culturelle	ـ المجال ـ الدائرة الثقافية
-Sens	ـ معنى ، دلالة
-Structure	ـ بِنْيَة
-Structure rurale de type féodal	ـ بنية ريفية من نمط اقطاعي
-Schéma de penées, de normes et de comportements	ـ مخطط التفكير والمعايير والسلوكات
- Tradition (s)	ـ تقليد ، تقاليد
-Thése	ـ اطروحة
-Tissu intellectuel	ـ نسيج فكري
-Typologie	ـ نَمَطِية
-Tranformisme	ـ تَحَوُّلِوية ، تَحْويلَوِيَّة
-Travailleur intellectuel	ـ شِغيل مثقف
-Vision du monde	ـ رؤيةُ العالم

فهرس

صدر عن دار الحداثة لعام ١٩٨٥

- □ تطور نظام ملكية الاراضي في الاسلام .... محمد علي نصر الله
- □ من وثائق الصراع العربي الصهيوني ١٠/١ .... د.سمير أيوب
- □ تغريب التراث العربي .... د. محمد عيسى صالحية
- □ التاريخ الاقتصادي للشرق الأوسط وشمال افريقيا (مجلد) .... شارل عيسوي
- □ تاريخ العرب في سوريا قبل الإسلام .... رينيه ديسو
- □ مدخل إلى التحليل البنيوي للنصوص .... إشراف: دليلة مرسلي
- □ العرب والديمقراطية .... د. خليل أحمد خليل
- □ العرب والقيادة ـ بحث في علم اجتماع القيادة عند العرب .... د. خليل احمد خليل
- □ المفاهيم الاساسية في علم الاجتماع .... د. خليل احمد خليل
- □ الفكر السياسي عند ابي الحسن الماوردي .... د. احمد مبارك البغدادي
- □ فلسفة الرفض .... باشلار ـ ترجمة د. خليل احمد خليل
- □ مذهب الذرائع .... يعقوب فام
- □ اصل العنف والدولة .... ترجمة وتقديم: علي حرب
- □ مداخلات : مباحث نقدية حول اعمال : محمد عابد الجابري عبد السلام بنعبد العالي ، حسين مروه ـ سعيد بنسعيد ـ هشام جعيط .
- □ الفكر الأوروبي ٢/١ .... بول هازار
- □ مشكلتا الوجود والمعرفة في الفكر الاسلامي .... عطية عاذرة
- □ تاريخ الإمارات الغربية في العصور الوسطى .... ماكيافلي
- □ النقود والسياسة النقدية في الاقتصاد اليمني الحديث .... عبد العزيز احمد سعيد المقطري
- □ الصراع التكنولوجي الدولي .... شيرمان جي ـ ترجمة آمنة المصري نور الدين
- □ كيف نبني بيتاً؟ .... اعداد وتقديم المهندس علي حمود ـ ترجمة المهندس أسعد ادياب
- □ هموم الثقافة العربية .... أعداد وتقديم: فرحان صالح
- □ شخصية المثقف في الرواية العربية الحديثة .... د. عبد السلام الشاذلي
- □ حول قضايا التغريب والتجريب في الأدب العربي المعاصر .... د. عبد السلام الشاذلي
- □ السمات الواقعية للتجربة الشعرية الجزائرية .... زينب الأعوج
- □ كنوز الأشعار الذهبية ، مختارات من الشعر الانكليزي .... ترجمة: حكمت تلحوق
- □ علم الجمال .... هنري لوفيفر
- □ فصول في النقد .... غالب هلسا
- □ النظريات اللسانية والبلاغية عند العرب .... د. محمد الصغير بناني
- □ الشعر في إطار العصر الثوري .... د. عز الدين اسماعيل
- □ اثر الرمزية الغربية في مسرح توفيق الحكيم .... سعديت آيت حمودي
- □ بناء الشخصية الرئيسية في روايات نجيب محفوظ .... د. بدري عثمان
- □ استعادة المبادرة كيف يمكن للعلوم العربية الاسلامية ان تنهض ؟ .... د. محمد عبد السلام
- □ فصول من تاريخ الثورة اليمنية (عبد الناصر واليمن) .... د. عبد العزيز المقالح
- □ مسرات حجرية .... نادر هدى
- □ لغة الجنوب .... فرحان صالح
- □ احزان مرئية .... كامل صالح
- □ مقالات الإسلاميين ١ / ٢ .... الأشعري
- □ الصحاح . منجد عربي ـ عربي .... للامام الرازي
- □ جمهرة خطب العرب ١ / ٣ .... صفوت
- □ القانون الدستوري والأنظمة السياسية .... د. أحمد سرحان
- □ التعويض عن الضرر المعنوي في المسؤولية المدنية (دراسة مقارنة) .... د. السعيد المقدم
- □ نظرية الغلط في القانون والشريعة .... د. حسين عطا
- □ نظرية الباعث في الشريعة الاسلامية .... حليمة آيت حمودي
- □ نظرية الاستغلال في الشريعة والقانون .... د. حلو عبد الرحمن ابو حلو
- □ الانهاء التعسفي لعقد العمل .... د. عبد الحفيظ بلخيضر

بيروت ـ طريق المطار ـ شارع مدرسة القتال ـ بناية حلمي عويدات ـ تلفون ٨٣٣٩٨٩ ـ ص.ب: ٥٦٣٦ / ١٤ ـ بيروت ـ لبنان

مؤسسة جواد للطباعة والتصوير
هاتف: ٨٣٠٩٤٢ - بيروت - لبنان



هذا الكتاب

هذه الخصائص تجعل التفكير الفلسفي لدى الجماهير ذات طابع « ايماني ومعتقدي » فالموقف الفكري عند انسان من الشعب يتكون عادة من المظنونات والمعتقدات ومن موازين التمييز والتحليل وقواعد السلوك التي يراها مذاعة ومشتتة في اوساط الطبقة أو الفئة الاجتماعية التي ينتمي اليها ، وحتى لو لم يجد الحجج العقلانية الصارمة للاقتناع والزواج بنظرة طبقته للواقع والعلاقات الاجتماعية فان يعرف بالحس والحدس أن هناك مثقفين ومتعلمين قادرين على افحام الخصم الطبقي اوتقزيمه وتخريب محاججته الفكرية ، وبالتالي تحقيق هزيمته. ان الفكرة الطريفة لماركس التي تقول ان « تفكير المرء في الكوخ يختلف عنه في القصر» صحيحة في هذا السياق إذا أخذت بعيداً عن كل جبرية أو حتمية ميكانيكية تربط العلاقات الانتاجية المادية التي تؤطر المرء والاشكال التي يتخذها وعيه وعاء لتجربته واحساساته ونظراته وافكاره بشأن وضعه المادي والاجتماعي .

هكذا ـ اذن تشكل هذا الحوار أو النقاش :

نص تمهيدي حول الأيديولوجيا والمثقفين عند غرامشي

حوار ع . جغلول . . كورقة نقاش .

و ١٠ تدخلات ـ مقالات كملف نقاش . .

وحصيلة ، هي تركيب نقدي مؤقت لنقاش مفتوح ، يتطلب التعميق .

دار الحداثة

للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

لبنان ـ بيروت ص . ب ١٤/٥٦٣٦